
د. تامر إبراهيم
عبر الزمن
1
دماء الأميرة
www.alkottob.com

عبر الزمن

دماء الأميرة



د.تامر إبراهيم

وسط حياة الملوك ومؤامرات القصور و نبوءات السحرة سنحكي أول قصصنا..
في زمن الخيانات والإغتيالات و الحروب ستعيشون معي أول حكاياتي..
و حكاية اليوم تحمل رائحة الرعب و مذاقه .. إنها حكاية عن أميرة ..
أو على الأدق ..
عن دمائها !





دار ليلى ـ دايموند بوك

الثمن في مصر 300 م
و ما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية و العالم

مقـدمة .

حياتي ليست كحياتك، أو كحياة أي شخص تعرفه..

حياتي هي أوراق متناثرة في عصور مختلفة، و في كل ورقة قصة، تنتظر أن أحكيها لك..

قصة حدثت و لم يذكرها التاريخ لك كاملة، لذا سأقدمها لك كاملة بكل ما تحويه من أهوال..

قصة تحمل رائحة الرعب و مذاقه..

حياتي ليست كحياتك، أو كحياة أي شخص تعرفه..

حياتي هي لحظات تمضي بين هذه القصص، و هذا قدري الذي لم أختره، و لا أعرف له بديلاً..

و اليوم، سأحكي لك واحدة من هذه القصص التي رأيتها وعشتها..

عبر الزمن..

د . تامر ابراهيم

١- تلك الأشياء..

"متى إذن ستكف عن عنادك يا (نادر)؟.. أتريد أن تقضي عمرك وحيدًا؟"

تقولها (سوسن)، ثم ترشف المزيد من العصير من كوبها، لتواصل بذات الحماس:

- "أنت تعرف أننا كلنا لا نودّ أن نتركك هكذا.. لكن كل واحد لديه مشاكله الخاصة، ولا يمكننا أن نقلق عليك إلى الأبد"..

يمكنني أن أردّ عليها بأنني لم أطلب منها شيئًا، لكن هذا لن يوقفها..

- "ثم إنك لم تعد طفلاً لا يتحمل المسئولية..

إن لم تتزوج الآن؛ فستقل فرصك مع الوقت."

- "لكنني تزوجت وفشلت.. وهو شيء آخر لن أكرره أيضًا، بل سأحتفظ بصمتي.."

- "كلنا نمرّ بتجارب فاشلة، لكنها تعلمنا كيف ننجح فيما هو قادم.. من الصعب أن تفشل زيجتك القادمة إلا لو أردت أنت هذا.."

ترشف (سوسن) المزيد من العصير، لتواصل بصوتها الذي لابدّ أنه جذب انتباه كل من في الكافتيريا:

- "ثم إنني أحمل لك خبرًا سعيدًا.. أنت تذكر (مي) التي كانت تزورنا قبل أن تسافر مع أسرتها إلى (المجر)؛ لقد عادت إلى (مصر) ولم تتزوج حتى الآن.. أنت تذكر كم كانت جميلة في صباها، ولقد رأيتها منذ يومين.. صدقني.. كل هذه السنوات لم تنقص من جمالها شيئًا.."

هل تحسب الحمقاء أن هذه النقطة تهمني حقًا؟!

تمدّ (سوسن) يدها لتقبض على يدي:

- "أنا أختك الكبيرة يا (نادر)، لذا أصغ لي جيدًا.. ما تحتاجه الآن هو زوجة ترعاك، وتمنحنا نحن بعض الطمأنينة عليك.. إن مجرد فكرة أنك تعيش بمفردك تؤرقني..

لكن هذا ما أبغيه حقًا.. سنوات عمري علمتني أن الوحدة هي ما أبغيه دون غيرها.."

فقط، لو يتركونـي هم لحالي دون تدخل!

و تقول (سوسن):

- "عدني أنك ستفكر في الموضوع.. على الأقل عدني بهذا.."

فأهز رأسي موافقًا، وأنا أحلم في عقلي باللحظة التي ستنتبه فيها أنها تأخرت عن عملها، لتتركني أحتسي

قهوتي في هدوء..

- "و متى سترد عليّ إذن؟"

- "قريبًا.. سأرد عليك قريبًا جدًا.."

أقولها مضطرًا، فتأخذ هي حقيبتها وتهبّ واقفة:

- "عظيم.. سأرحل أنا الآن، فلقد تأخرت عن عملي.. سأتصل بك غدًا.."

و أنا سأنتزع سلك الهاتف، لكنني لن أخبرها بهذا.. فقط أمنحها ابتسامة وداع، لترحل هي أخيرًا..

الآن يمكنني أن أرتشف قهوتي في هدوء؛ الآن يمكنني أن أراقب تلك الفتاة التي تقف في ركن الكافتيريا..

إنها ترتدي ثوبًا باليًا تغطيه الدماء، وفي رسغيها ثقبان قبيحان جفت حولهما الدماء، ومن وجهها الشاحب شحوب الموتى، ترمقني عينان لا تطرفان كأنها تنتظرني..

وأنا أعرف لماذا..

مادمت أرى شبحها، فهذا يعني أن هناك عملاً ينتظرني حين أعود لداري..

أمّا الآن -وبما أنها ماتت فعلاً- فيمكنها أن تنتظر حتى أنهي قهوتي..

لن يضيرها هذا في شيء!

* * *

و داري قد لا تختلف عن دارك، إلا في غرفة واحدة..

ستجد طاولة الطعام الكئيبة التي تحيط بها ستة مقاعد، وستجد عدة أرائك متناثرة هنا وهناك، يغطيهم الغبار، مهما حاولت تنظيفهم.. وستجد الثريا المعلقة من السقف، والتي لا أستخدمها إلا نادرًا.. ستجد الثلاجة ببقايا

الطعام التي تحتاج لمن يتخلص منها، وستجد تلك الرائحة التي تميز الدار عمّا سواها..

لكل منزل رائحته الخاصة، التي لا تجدها في مطعم أو شركة أو في أي منزل آخر، وأنا أعرف هذه الرائحة وأحبها..

فقط ستجد أن غرفتي الخاصة، مختلفة تمامًا عن أية غرفة في أي منزل، عشت أنت فيه، وستعرف الآن لماذا..

فقط سألفت انتباهك أولاً، أن شبح هذه الفتاة التي تغطيها الدماء، تبعني إلى المنزل دون أن يبادلني حرفًا..

هي تعرف أنني أراها كما تراني، وهي تعرف -تقريبًا- ما سيحدث الآن.. لذا فهي لا تملك سوى الانتظار الصامت، وأنا لا أنوي أن أطيل انتظارها على أية حال..

أعيش وحيدًا كما ترى، لذا تشعر بأن هذا الصمت

المطبق مريب نوعًا ما، لكن هذا معتاد في منازل من يعيشون بمفردهم.. لن تسمع صوت آنية في المطبخ ولا نداء أطفال ولا صراخ زوجة، وحتى الجيران في هذا الحي الهادئ، لا يصدر عنهم صوت، إلا حين يخرجون للعمل صباحًا..

أما الآن..

أما الآن، فسيبدو لك الأمر وكأنني آخر رجل على وجه الأرض، ولا يوجد سواي..

صمت.. ظلام.. وحدة..

في ظلام المنزل، أتجه إلى غرفتي الخاصة، لأدخلها وأحكم إغلاق الباب خلفي.. لترى معي محتويات الغرفة، وتتعجب..

مقعد عملاق في منتصف الغرفة تمامًا، تحيط به على الأرض رسوم ونقوش عجيبة تحمل رائحة السحر

ومذاقه.. وأمام المقعد ترى تلك المرآة الهائلة ذات الإطار الخشبي العتيق..

لا نافذة.. لا مصباح.. لا شيءَ سوى ما ذكرت..

بصمت يتجه شبح الفتاة إلى ركن الغرفة، بينما أتجه أنا إلى المقعد لأسترخي عليه، منكسًا رأسي..

بصوت خافت، أردد كلمات لا ينبغي لك أن تعرفها، فما سأفعله الآن لا يخضع لباب التجربة والاحتمالات..

فقط تابعني وأنا في جلستي العجيبة هذه، وحاول أن تصغي جيدًا معي..

مع صوتي الخافت ترتفع أصوات أخرى؛ أصوات غير بشرية..

أصوات هي مزيج من الصراخ والهمس والغناء والتراتيل.. أصوات ترتفع تدريجيًا حتى تملأ الغرفة،

وكأنها كيان مادي في حد ذاته..

أصوات ترتج لها الجدران، وتشع على إثرها المرآة العملاقة أمامي بضوء لا مثيل له..

ضوء يسطع ويسطع ويسطع و...

و فجأة تنفجر قنبلة الضوء من المرآة، لأختفي أنا!

أتلاشى كأنني لم أكن..

أنتقل إلى الزمان والمكان الذي كانت تعيش فيه هذه الفتاة، قبل أن تقتل بهذه الطريقة!.

* * *

2- أن تفهم وأن تصدق!

أحسبك الآن تحاول أن تفهم ما الذي حدث بالضبط، وهذا من حقك..

لكن دعني أحك لكَ أولاً ما حدث لي، حين كنت في العاشرة من عمري..

كنت في ذلك الوقت أحيا في منزل جدي، مع أختي الكبرى (سوسن)، نتساءل طيلة الوقت، أين ذهب والدينا اللذان خرجا منذ شهرين ولم يعودا حتى الآن؟.. وكانت خالتي التي ترعانا، ترد علينا ذلك الرد الوهمي الذي لم أفهمه قط.. "إنهما في السماء، حيث سنجتمع كلنا في النهاية"..

أين في السماء؟.. لماذا وكيف ذهبا؟.. وما هي هذه النهاية التي تتحدث عنها ؟؟..

لم أفهم وقتها شيئًا يرد على هذه الأسئلة، ولن أكذب عليك وأقول إنني كنت أهتم كثيرًا..

الطفل في العاشرة، لا يعرف سوى اللعب وتغطية جسده بشتى أنواع الإصابات، التي ستُغطى لاحقًا بالمطهرات، ذات الرائحة النفاذة.. ثم إنني كنت أحب جدي كثيرًا..

جدي بجسده الضخم، وشعره الأبيض الممتزج بلحيته الناعمة، يبدو كسحرة الروايات الخيالية التي كنت أدمنها.. جدي الذي كان يحكي لي بصوته العميق؛ قصصًا وحكايات، لا أعرف من أين يأتي بها، لكنني كنت على استعداد لطاعة خالتي؛ لأظفر بهذه القصص قبل النوم..

حتى جاء اليوم الذي لم يستطع فيه جدي القيام من على فراشه..

أذكر هذا اليوم، كشيء ضبابي تمتزج فيه الأحداث بصورة عجيبة.. أذكر الطبيب الذي دخل غرفة جدي، ليمضي وقتًا طويلاً في الداخل، قبل أن يخرج لينتحي بخالتي في ركن الردهة..

أذكر أن خالتي بكت مما سمعته، وأنها أجرت عشرات المكالمات الهاتفية.. أذكر كل من أتوا في هذا اليوم، والرهبة تملأهم، والدموع تبلل وجوههم، دون أن يتطوع أحدهم ليشرح لي -أو لأختي- ما الذي يحدث بالضبط..

وأذكر في النهاية، كيف طلب جدي رؤيتي على انفراد، وهو مطلب، أثار حيرة واستغراب كل مَن ملئوا المنزل الصغير، بصخبهم ودموعهم..

لكنني -ومن هذه النقطة- أذكر ما حدث تفصيليًا، كأنه حدث البارحة..

بخطوات مترددة اتجهت إلى فراش جدي، الذي استلقى على فراشه بجسده الضخم، وقد تناثرت خصلات شعره حول وجهه، لتبدو وكأنها تحيطه بهالة الضوء..

خالتي أغلقت الباب علينا، ليناديني جدي بصوت واهن:

- "اقترب يا (نادر)"

لكنني كنت خائفًا..

لسبب ما شعرت بخوف هائل يمزقني، وبرغبة عارمة في الفرار، لكنني تقدمت -لا إراديًا- حتى أصبحت في متناول يده..

وبدون أن ينطق بحرف، مدّ جدي يده الضخمة

المشعرة، ليقبض على رأسي بقوة لا ترحم؛ لينتفض جسدي الضئيل، كأنما صعقتني الكهرباء..

لم أصرخ..

عجزت عن الصراخ..

فقط شعرت بملايين الصور والذكريات والأحداث تنتقل لعقلي، ومن حولي تصاعدت تلك الأصوات العجيبة، وأخذت تتعالى بسرعة هائلة حتى طنت أذناي بها..

أصوات.. بكاء.. وجوه.. أماكن.. حروب.. أشباح.. لغات..

كل هذا تسرب إلى عقلي بسرعة هائلة، وأنا أرتجف عاجزًا عن الحركة، بينما يدّ جدي تقبض على رأسي كالخوذة..

وفي النهاية، ارتخت أصابعه؛ لأسقط أنا على

الأرض، ألهث وأرتجف، والعرق يغطيني، بينما أعاد جدي يده إلى صدره ببطء، ليقول بذات الصوت الواهن:

- "أنت ستكمل ما بدأته.."

ثم إنه أغلق عينيه ليخفي دمعة تأثر، ليردف:

- "سامحني.."

بعدها..

بعدها فقدت وعيي، ولم أستيقظ إلا في فراشي، وخالتي جواري تبكي، وتخبرني أن جدّي انتقل إلى السماء هو الآخر، حيث سيلتقي بوالديّ..

و حيث سينتهي بي المطاف في النهاية..

لكنني لم أفهم حينها، ما الذي حدث لي بالضبط..

كنت طفلاً في العاشرة من عمره، فكيف كان لي أن

أفهم؟!

* * *

لكنني مع الوقت بدأت أفهم..

إنني أرى أشباح من ماتوا.. أراهم طيلة الوقت ينظرون لي وينتظرون.. جدي كان يملك هذه القدرة، وتركها لي كي أواصل ما كان يفعله، لكن لازال هناك ما ينقصني..

* * *

و حين أتممت الثانية والعشرين من عمري، وجدت في أوراق جدي التي تركها مخبأة في مكتبته، السر الذي كان ينتظرني لأكتشفه..

وجدت طريقة الاتصال والانتقال..

لا.. لن أشرحها لك إن كان هذا ما تنتظره، فكما

قلت أنفا، هذه أشياء لا تحتمل التجريب والاحتمالات، بل هي قدر يدفع ثمنه من أصيبوا به.. فقط سأخبرك أنني تعلمت كيف أرسم النقوش على الأرض، وكيف أجلس على ذلك المقعد الضخم أمام المرآة، لأنتقل إلى ما قبل موت الشبح الذي أراه بفترة..

أنتقل إلى عصرهم ومكانهم، وأثناء انتقالي أتحول إلى شبح، يرى ما يحدث ولا يراه أحد..

أتحول إلى شبح، قادر على اختراق الحواجز والتواجد في أي مكان؛ لأرى وأفهم، كيف ولماذا مات صاحب الشبح الذي أراه قبل انتقالي، وفي النهاية..

في النهاية يأتي دوري ..

* * *

هذه المرة -حين انتقلت- وجدتني أتجسد في حديقة

قصر منيف، تخرج الأضواء من كل نافذة فيه، لتنير ظلام الليل من حوله.. وكانت الثلوج تبسط عباءتها البيضاء على الأرض من حولي..

لا أعرف أي زمن هذا ولا أي مكان بعد، لكنني سأعرف حالاً لو كان حظي حسنًا..

فقط علي أن أتحرك أولاً..

أذكرك أنني الآن في حالة شبحية، أي أنه لا يوجد من يمكنه رؤيتي، ولا يوجد حاجز لا يمكنني اختراقه، لذا لن يضيرني أن أتجاوز رتل الحرس الذين يقفون أمام البوابة الضخمة، لأدخل إلى هذا القصر، وهذا ما فعلته..

حاول أن تتخيل معي بعض التفاصيل أولاً..

تخيل القصر، الذي يبدو الآن أشبه بمتحف هائل، بذلك الطراز المعماري القوطي، حيث النقوش والتماثيل

يصنعان الجدران..

حاول أن تتخيل الحراس، بأجسادهم الضخمة، وبأزياء يمتزج فيها الحرير بالدروع المعدنية، كأنهم فرسان القرون الوسطي..

حاول أن تتخيل العربات الفاخرة التي تجرها خيول متأنقة، والتي تتحرك طيلة الوقت أمام بوابة القصر، لتلقي بحملها؛ رجالاً ونساءً، يرتدون أثوابًا مبالغ فيها..

إنه القرن السادس عشر أو السابع عشر، وهذا يعطينا فكرة مؤقتة عن الزمن.. وهذه اللغة الإنجليزية العتيقة التي يتحدث بها الحراس؛ تحمل لكنة بريطانية لا يمكن أن تخطئها الأذن..

إننا في (بريطانيا) إذن..

أواصل طريقي، مخترقاً الجدران والعوائق، لأصل

إلى ردهة القصر التي اكتظت بالمدعوين، لألحظ أن الجميع هنا يرتدون ملابسًا عجيبة حقًا.. ثمة نوع من البذخ تفوح رائحته منهم، وكأنهم يستعرضون قدراتهم المادية، لكن الناتج النهائي أتى متناغمًا مع فخامة المكان وأبهته..

المشاعل الضخمة.. السجاجيد الفاخرة.. التماثيل الأصلية، واللوحات التي لم يجف زيتها بعد، والخدم - وسط كل هذا- كالنحل يحملون الطعام والشراب، يجولون به طيلة الوقت وسط ضيوف القصر، والكل ينظر إلى السلم الذي يقود إلى الطابق العلوي في ترقب..

يقول أحدهم:

- "هل سيتأخر الملك؟"

فيرد عليه زميله همسًا:

- "اخفض صوتك.. إنك في قصره، لكنك قد لا

تخرج منه حيًا لو قلتَ ما يغضبه."

إذن هناك ملك.. وهذا قصره.. وهؤلاء ضيوف حفله..

لم تكن هذه أول مرة أنتقل فيها إلى العصور الوسطى، لذا لم اشعر بالانبهار من الجو المحيط بي.. في الواقع، أنا هنا لغرض ما، وأريد أن أنهيه لأعود إلى داري، لكن لا يبدو أن هذا سيتم سريعًا..

لكنني أتساءل حقًا، عن سر العلاقة بين تلك الفتاة التي رأيت شبحها، وبين قصر ملك بريطانيا!..

إنها ليست من ضيوف القصر، وليست من الخدم، فمن هي إذن؟؟

يتجمع الخدم فجأة بتنظيم دقيق حول وأسفل السلم، ليصيح أحدهم باحترام:

- جـــلالة الملـــك..

يقولها، ليتوقف الجميع عن الحركة وعن الهمس وكأن على رؤوسهم الطير، ثم تدوي أبواق حماسية من مكان ما، ليظهر جلالته أعلى الدرج..

الآن أراه بوضوح، وهو يهبط الدرج بخطوات ملكية وئيدة..

قامته الممشوقة.. وجهه القاسي.. ذقنه المدببة.. عينيه الثعلبيتين، وشعره الطويل المسترسل..

أنا أعرف هذا الوجه.. أذكره من بين الوجوه التي حفظها عقلي يوم نقل لي جدي ذكرياته..

إنه الملك (تشارلز الأول)..

شخصيًا..

* * *

3- في حضرة الملك..

و أنا أعرف عن هذا الملك الكثير..

عقلي أصبح أشبه بموسوعة المعارف البريطانية، منذ نقل لي جدّي خبراته، والذي يبدو أنه جاب كل العصور في سنوات عمره الطويلة، ليترك لي ميراثه الهائل في النهاية..

إنه الملك (تشارلز الأول)، ابن الملك (جيمس الأول).. ولد عام 1600 م في (اسكتلندا)، وأصبح أمير (ويلز) وهو لا يزال في السادسة عشر من عمره، ثم تولى حكم (بريطانيا) و(أيرلندا) و(اسكتلندا)، حين بلغ الخامسة والعشرين..

سياسي مخضرم، يدرك أهمية القوة والتحالفات، لذا حاول أن يتزوج ابنة ملك (أسبانيا) -ليضمها إلى قائمة حلفاءه- وحين فشل في هذا، أسرع بالزواج من الأميرة (هنريتا ماريا) ابنه ملك فرنسا، ليضمن بهذا ولاءهم له، ومساندتهم عند الضرورة..

لكن نقطة ضعفه كانت صديق والده، الدوق (جورج فيلرز) وهذا الأخير لا يستحق إلا أن نصفه بالأحمق!

لا يملك أي موهبة سوى النفاق، وهذا ما جعله مقربًا من الملك (جيمس)، الذي عينه سكرتيره الخاص، ثم منحه (تشارلز) ثقته وأرسله إلى ملك (أسبانيا) للتفاوض على زواجه من ابنته، لكن (فيلرز) فشل في مهمته، وانتقم بأن حرّض (تشارلز) على خوض حرب ضد (أسبانيا) عام 1624 م، ثم حرب أخرى مع (فرنسا)

عام 1626 م ، لمجرد أنه يريد استعراض مهاراته العسكرية، وانتهى به الأمر في الحالتين بهزائم مخزية..

وعلى الرغم من أن أعضاء البرلمان، أعلنوا رفضهم التام لوجود (جورج فيلرز)، وللسلطات التي يمنحها له الملك (تشارلز) بلا حساب، واستخدموا هزيمته النكراء في (أسبانيا) ليطالبوا بمحاكمته، إلا أن (تشارلز) قرر عدم التخلي عن صديق والده المخلص، فقام بحل البرلمان!

ثم أصيب الملك (تشارلز) فجأة بهوس (السلطة المطلقة للملوك)، والتي تفترض أن أي أمر يخرج من الملك، يجب أن يطاع بلا مناقشة، فالرب والكنيسة يؤيدانه، ولا صوت للبرلمان أمام رغباته..

و بتشجيع من (فيلرز) بدأ (تشارلز) في زيادة الضرائب والضغط على نفقات شعبه، ليتمكن من تمويل

جيوشه، التي تناثرت عبر البلدان، لتخوض معارك خاسرة بقيادة (فيلرز).. وكانت هذه القرارات، هي المسامير التي دقّ بها (تشارلز) نعشه دون أن يدري..

و هذا ما ستراه بنفسك حالاً..

* * *

كان المشهد جديرًا بالمراقبة حقًا..

الملك بهيبته يهبط الدرج بتؤدة، تلاحقه العيون، والأبواق تعزف لحنًا ملكيًا، انتهى بتصفيق حار من المدعوين، بينما الملك ينضم لهم، متجاهلهم جميعًا بلا استثناء، بصورة تدفعك لتسأل نفسك عن سر دعوته لهم، ماداموا لا يهمونه في شيء..

لكنها حياة الملوك كما يبدو، وهذا الحفل الهائل مجرد طقس من طقوس الحكم، كما أنها فرصة طيبة

لتناقل الشائعات والأقاويل التي ستصل في النهاية لجلالته، ليعرف بها أكثر مما يعرفه من البرلمان ذاته..

عاد الكل للحركة، بعد أن كانوا قد تحولوا إلى لوحة ثابتة من لوحات القصر، بينما شق الملك طريقه وسطهم، متجهًا إلى القاعة الثانية، فقررت أن أتبعه من باب الفضول من ناحية؛ ومن ناحية أخرى البحث عن صاحبة الشبح التي لم أرها حتى الآن..

و في القاعة الثانية أشار الملك للحرس والخدم بأن يتركوه بمفرده، ليواصل هو طريقه إلى غرفته في نهاية القاعة، وأنا من خلفه، لندخل سويًا إلى تلك الغرفة، التي أنارتها نيران المدفأة، لأجد في الداخل رجلاً قصير القامة، متين البنيان، أشيب الشعر، وإن نزع الغرور المطلّ من عينيه أي فرصة لأن يبدو حكيمًا، فاستنتجت هويته دون مشقة..

(جورج فيلرز)..

و ما إن سقط بصر الملك عليه، حتى لانت ملامحه وأسرع إليه مرحبًا:

ـ "وا عزيزي (جورج).. دوق (باكنجهام).."

لم يهبّ (فيلرز) حتى لتحيته، بل قال:

ـ "إنني أنتظرك منذ فترة.."

ـ "أعرف.. لكن كان عليّ إنجاز بعض الأشياء أولاً.."

ـ "لا تجهد نفسك كثيرًا.. كنت أردد هذه النصيحة لأبيك الملك (جيمس)، دون أن يصغ لي.."

ـ "أنت تعرف مشقة الحكم.."

ثم إنه جلس أمامه، وقد مال بجذعه ليبدو عليه

الاهتمام، منتظرًا أن يبدأ (فيلرز) بالحديث، لكن هذا الأخير أخذ يرمق نيران المدفأة طويلاً، قبل أن يقول أخيرًا:

ـ "إنني ذاهب لـ(فرنسا) غدًا.. لن تنتهي الحرب بيننا بهذه الصورة.."

ـ "تذهب بنفسك؟.. ألا ترى في هذا مخاطرة غير محسوبة؟"

صاح (فيلرز) غاضبًا، وقد احتقن وجهه:

ـ "ألا ترى العار الذي لحق بي من جراء هزيمتي الأخيرة؟.. حتى البرلمان طالب برأسي، والكل يحملني المسئولية.."

كاد (تشارلز) أن يخبره أنها ليست أول هزيمة، لكن قرر عدم استفزازه وقال:

ـ "لقد حللت البرلمان، ولم يعد هناك من يجرؤ

على معارضتك.. ثم إن الموقف لا يحتمل مزيدًا من التعقيدات، وحتى (هنريتا) كانت تردد.."

قاطعه (فيلرز) بحنق:

- "لا تذكر اسم هذه المرأة أمامي.. أنت تعرف كم أبغضها.."

- "لكنك تعرف أيضًا لماذا تزوجتها.. ثم إنها تسعى لإنهاء الأزمة ليس إلا.."

- "حل الأزمة لن يكون إلا بالنصر، وهذا ما سأظفر به قريبًا، وسأعود من (فرنسا) بطلاً، لكن هذا كله لا يهمّ الآن.. إنني هنا لموضوع آخر.."

و مال بجذعه ليلفح بأنفاسه وجه الملك:

- "موضوع أهم وأخطر بكثير.. (آرثر فاولز) يرغب في رؤيتك.."

قالها فشحب وجه الملك، وبدأ يلهث لفرط انفعاله..

أمّا أنا، فتضاعف الفضول في أعماقي، رغمًا عني..

من (آرثر فاولز) هذا؟.. وما علاقته بما حدث؟ و يحدث؟!.

* * *

تلك الليلة، لم يجّد فيها جديد..

فقط أخبر (جورج فيلرز) الملك، أن ذلك المدعو (آرثر) سيأتي لزيارته في صباح اليوم التالي، وأن عليه أن يمنحه أذنه وثقته وعنقه لو لزم الأمر.. ويبدو أن الملك سمع الكثير عن (آرثر) فلم يستطع النوم تلك الليلة، بل أخذ يجوب ممرات القصر بعد انتهاء الحفل، حتى أسرعت إليه خادمة فرنسية، قائلة:

- "مولاتي ترغب في لقاءك."

إنها تقصد زوجته (هنريتا).. ويبدو أن الملوك لا يلتقون بزوجاتهم إلا بمواعيد محددة، يقررها المستشارون، ويتابعها الخدم..

- "أخبريها أن تنتظرني في القاعة الزرقاء.."

قالها بكراهية، فهذه الخادمة، وكل الخدم التي أحضرتهم (هنريتا) معها من فرنسا يرهقون ميزانيته حقًا.. (فيلرز) اقترح عليه طردهم، لكنه لا يودّ استفزاز زوجته الآن..

يكفي أنه في حرب مع بلدها!

- "إن مولاتي تنتظرك بالفعل يا جلالة الملك.."

أنا مثلك، أكره كثرة استخدام (مولاتي) و(جلالتك)، لكننا في (بريطانيا) القرن السابع عشر، وهذه الألفاظ

مقدسة، لدرجة أنه لو لم تستخدمها الخادمة، لطار عنقها بلا جدال..

وهكذا قرر الملك أنه لا مفر من شجار الليلة المعتاد، فأخذ يسرع الخطى عبر الممرات -وأنا من وراءه كالعادة- إلى القاعة الزرقاء، والتي استحقت اسمها عن جدارة..

الطلاء الأزرق، والستائر الزرقاء المخملية، والسجاجيد التي يتفاوت فيها الأزرق السماوي بالأزرق الداكن كمياه المحيط، وكل هذا، لا يحمل سوى سمة البذخ المبالغ فيه، والذي لا تجده إلا في قصور الملوك وبعض الحمقى!..

كانت (هنريتا) جميلة حقًا..

كانت تملك عينين حالمتين لا تدري أين تشردان..

وكانت أنيقة بلا مبالغة.. رقيقة كزهرة يبللها الندى..

وكانت هذه الليلة غاضبة كعادتها، لكنها كانت تحاول تمالك أعصابها..

إنها تبغض زوجها تمامًا كما يبغضها، وكانت تدرك جيدًا معنى أن يكون زواجها مجرد تحالف للقوى.. ذلك التحالف الذي دفع (تشارلز) ثمنه غاليًا..

فالبرلمان والكنيسة لم يوافقا على زواجه من (هنريتا)، لكنه فعلها على أية حال، ليحظى هو وهي بُكره الجميع، ودفعت هي الثمن بأنها لم تتوّج كملكة، وأصبحت فريسة لانتقادات (جورج فيلرز) التي لا تنتهي، حتى باتت أغلى أمانيها أن تراه ميتًا.. لكنها تحلت بالصبر وبعزة النفس، وحافظت على صورتها كابنة (هنري) ملك فرنسا، وزوجة (تشارلز) ملك (بريطانيا) و(ايرلندا) و(اسكتلندا)..

لكن هذه الليلة كانت سليلة قصر (اللوفر) غَاضبة وبشدة..

وهذا ما شعر به (تشارلز) على الفور، فلم يكد يراها حتى قال بسرعة ودون أن يجلس:

ـ "ما الذي تريدينه؟"

لم تكن هذه طريقة لائقة للتحدث، لكنه اعتاد شجارها الذي ينتهي بأسابيع لا يراها فيها، فلم يهتم كثيرًا بالشكليات المعتادة.. أما هي فقالت بصوت قوي يحمل رائحة غضبها المكتوم:

ـ "ما الذي كان يفعله (فيلرز) هنا؟"

يبدو أن شجار هذه الليلة سيكون مسليًا.. لذا جلستُ أنا على المقعد الخاوي في الركن لأتابع حوارهما الشيّق..

ـ "لا تسألي عمّا لا يخصك.."

هكذا أجاب الملك بصرامة، لكن رائحة الغضب

تزايدت في صوت (هنريتا):

- "وهل سفره ليواصل حربه على فرنسا، لا يخصني؟.."

هنا أدركت أنا والملك، أن الخدم يمارسون عملهم في نقل الأسرار بهمة ونشاط، فاستشاط (تشارلز) غضبًا وصاح:

- "أتتجسسين عليّ يا امرأة؟؟"

- "أنت الذي فقدت عقلك.. تتبع كل ما يقوله لك هذا الأحمق (فيلرز) كالعميان."

- "إنه يعرف ما يفعله.. فقط احتفظي أنت بآرائك لنفسك."

هنا فقدت (هنريتا) أعصابها، وهبّت واقفة لتمارس ما نسميه نحن (بالردح) في أفضل صوره:

- "هذا الغبيّ ورّطك في حروب لا داعي لها.. وأرهق الميزانية في إنفاقه على سلسلة هزائمه، ولم ينجح في مهمة واحدة أسندت إليه، منذ كان يعمل مع والدك.. انزل إلى شعبك وجد لي شخصًا واحدًا يؤيد تصرفات هذا المخبول.. أم أنك تظن أن حل البرلمان سيعيد ثقة الجميع فيه وفيك.. ما لا أفهمه حقًا، هو كيف ورثت غباء أبيك، لتمنح هذا الفاشل ثقتك.."

بهت (تشارلز) مما سمعه، وعجز عن الرد بكلمة واحدة تحفظ له كرامته، فاكتفى بأن أخذ وجهه يحتقن ويحتقن، ليهبّ واقفًا في النهاية وليغادر القاعة في خطوات سريعة..

شجار آخر سينتهي بعدة أسابيع لن يتبادلا فيها حرفًا، لكنه يشعر أنها -نوعًا ما- محقة هذه المرة..

فعلاً لو لم يحقق (فيلرز) نصره المزعوم هذه

المرة، ستكون كارثة..

أمّا (هنريتا)، فقد ظلت في مكانها ترتجف غضبًا، حتى غاب الملك تمامًا عن بصرها، لتصيح في النهاية:

- "(صوفيا).."

أسرعت لها خادمتها الفرنسية بخطوات رشيقة، فأردفت (هنريتا) بحزم:

- "أريد أن أرى (فلتون).. الليلة."

ثم إنها انتظرت حتى غابت خادمتها لتنفذ أمرها، لتردف همسًا:

- "يجب أن أضع حدًا لهذا كله.. يجب."

حاولتُ أنا تذكر اسم (فلتون) هذا، لكنني فشلت..

إنني أشمّ رائحة مؤامرة من مؤامرات القصور

المعتادة.. لكنني لا أفهم شيئًا على الإطلاق..

والأهم من هذا كله..

أين صاحبة الشبح؟.. أين؟!

* * *

4- الساحر..

إنها ليست في القصر وأنا واثق من هذا..

لقد قضيتُ ليلتي كلها في البحث في غرف هذا القصر التي لا تنتهي، ثم خرجت إلى الحديقة ومنها إلى المنازل المجاورة، لكنني لم أجد أثرًا لصاحبة الشبح..

حتى الآن لم أر سوى شجار، ومؤامرة، وَخطط لحروب لا طائل منها، ورائحة قذرة تفوح من هذا كله، لكن لا أثر للفتاة.. على أية حال، لقد قررتُ أن ألزم القصر حتى تظهر..

ما دمت قد انتقلت من عصري إلى هذا القصر، فلابد أنها ستظهر فيه، إن آجلاً أو عاجلاً..

في اليوم التالي، ومع ساعات النهار الأولى، أستقبل القصر موكب الأمير (تشارلز) الثاني، عائدًا من رحلة صيد، وكما ترى.. في هذا العصر كان هناك هوس، أن يسمِّي كل ملك ابنه باسمه، وإنني أرى في هذا نوع من ضيق الأفق الذي لا يمكن إنكاره..

كان الأمير (تشارلز الثاني) في الثانية عشر من عمره، لكنه كان يحمل من الغرور وحب الذات، ما يكفي لمن هم في أضعاف عمره.. وكان الخدم من حوله -والذي كانوا يقومون بمهمة كلاب الصيد حاليًا- يحيطون به كالذباب، يهننونه على صيده الوفير -والذي لم يقم به بنفسه غالبًا- وينتظرون ما سيلقيه لهم في النهاية..

وبالفعل نثر عليهم الأمير بعض العملات الذهبية، بقرف واضح ثم ترجل من العربة الفاخرة، وانتظر أمامها ليخرج شاب آخر يكبره بسنوات قليلة.. ولأن الأمير يشبه

أباه الملك جسديًا إلى حد كبير، لذا سأصف لك الآخر، توفيرًا للوقت..

طويل كالأفارقة.. لكنه نحيف كأنه قادم لتوه من مجاعة.. عظامه كبيرة وتبرز بوضوح من أسفل رداءه الخفيف.. يملك أكبر كفين رأيتهما في حياتي، وله وجه مريح، تطل منه عينان باسمتان، وقد تألق شعره الذهبي في ضوء الشمس كالتاج..

وبلياقة تليق بأمير أشار له (تشارلز الثاني):

- "مرحبًا بك في قصرنا المتواضع.."

أجابه الشاب بصوت وقور:

- "أشكرك.. فقط أخبر جلالة الملك، أني راغب في لقاءه.."

- "سأرسل له من يبلغه بمجيئك.. فقط، اتبعني إلى

الداخل.."

وهكذا تحرك الاثنان، وأنا من خلفهما، إلى القاعة الرئيسية، ليشير (تشارلز الثاني) إلى أحد الخدم بتأفف:

- "أبلغوا الملك أن ضيفًا مهمًا في انتظاره.."

ثم إنه استدار إلى الشاب ليردف برقة:

- "سأصعد لأغتسل وأبدل ملابسي، وسأعود لك حالاً.."

- "خذ وقتك.."

وبينما اتخذ الشاب مجلسه على أحد المقاعد، أسرع الأمير يصعد الدرج ليجد والده في الممر، وقد بدا عليه أنه لم ينم طيلة الليل، ليدور بينهما هذا الحوار الدافئ:

- "إذن، قد عدت من رحلة الصيد.."

- "نعم.. أين هي أمي؟"

- "للأسف، لا تزال على قيد الحياة في غرفتها.. وللأسف أنت أيضًا.."

- "تبادلني ذات الشعور إذن.. هناك من ينتظرك في الأسفل.. إنه شاب قابلته في رحلة الصيد، وأنقذ حياتي حين هاجمتنا أحد الدببة في الغابة.. لقد قتله بخنجر صغير فقط.. ياله من شجاع!"

- "ليته لم يفعل.."

- "يقول إن اسمه (آرثر فاولز) ويقول أنك تعرف أنه.."

لكنه لم يجد الفرصة ليكمل جملته؛ إذ دفعه الملك بغلظة، وأسرع يهبط الدرج إلى الأسفل، ليجد الشاب ينحني له باحترام، قائلاً:

- "أرجو ألا أكون قد أيقظتك.."

لكن الملك أجاب بلهفة لا تليق به:

- "إنني أنتظرك منذ الأمس.. الدوق (فيلرز) أخبرني أنك قادم.."

- "عظيم.. أريد أن أختلي بك.. فما جئت من أجله لا يحتمل التأجيل، أو أن يشاركنا في سماعه أحد.."

- "لنذهب إلى غرفتي الخاصة إذن.."

وبخطوات ثابتة واسعة تبع الشاب (آرثر) الملك إلى غرفته الخاصة، لكن الملك لم يكد يغلق الباب حتى قال (آرثر) بهدوء:

- "انتظر.. لديكم هنا خادمة اسمها (صوفي).. فرنسية.."

أجابه الملك، والدهشة تطل من ملامحه:

- "نعم.. كيف عرفت؟"

- "سأشرح لك لاحقًا.. لكنني الآن، أرغب أن تنضم لنا (صوفي).."

- "ماذا؟!"

- "أؤكد لك أن الأمر يستحق.. فقط دعها تسرع بالحضور.."

هكذا خرج الملك من الغرفة للحظات، أخذت أنا فيها أرمق (آرثر) الذي وقف هادئًا، وملامحه لا تحمل سوى الودّ والثقة، ثم عاد الملك للغرفة، ليقول بضيق من لا يفهم ما يفعله:

- "إنها قادمة.."

- "عظيم.. لقد مات دوق باكينجهام (جورج فيلرز) صباح اليوم.."

هنا صاح الملك بجزع حقيقي:

- "مات؟.. كيف؟؟.. مستحيل!!"

لكن (آرثر) والذي يبدو أنه لا يوجد شيء قادر على التأثير على هدوءه، أجاب:

- "للأسف هذا ما حدث.."

- "لا أصدق.."

هنا وضع (آرثر) كفه على كتف الملك الذي أخذ يرتعش ذهولاً، وقال:

- "منذ هذه اللحظة، ستصدق كل ما أخبرك به بلا نقاش.. والآن تماسك.. فالخادمة ستطرق الباب حالاً.."

ولدهشتي تصاعدت طرقات ضعيفة على الباب، ثم فتحته الخادمة (صوفى) لتدخل قائلة:

- "أخبروني أن سموك ترغب في رؤيتي.."

لم يجب الملك، بل منح (آرثر) نظرة خاصة، تحرك على إثرها (آرثر) متجهًا لـ (صوفي) قائلاً بابتسامة تبعث على الطمأنينة:

- "لحظة من فضلك.."

ثم وبسرعة خاطفة استل خنجرًا صغيرًا من كم سترته، وشقّ به عنق (صوفي) في لمح البصر، ليطير خيط من الدماء إلى وجه الملك الذي شهق مذهولاً، بينما قبض (آرثر) بكفه الضخمة على عنق (صوفي) ليوقف النزيف، فأخذت تنتفض وقد حمل وجهها مزيجًا فريدًا من الذهول والرعب والألم، دون أن تجد حتى الفرصة لتصرخ..

كل هذا حدث في ثانية، حتى أنني لم أستوعب ما يحدث، إلا وقد حدث فعلاً..

حاول الملك أن ينطق بشيء، لكن ذهوله ألجم

لسانه، بينما اتسعت ابتسامة آرثر الهادئة وهو يقرب فمه من أذن (صوفي) التي أخذ وجهها يشحب بسرعة مخيفة، وجسدها لا يزال ينتفض كورقة، ليقول:

- "لو تركت عنقك الآن، ستنتزفين حتى الموت.. لن يستغرق هذا سوى لحظات معدودة.. فقط استسلمي لي، وسينتهي الأمر بلا ألم.."

وجه (صوفي) يزداد شحوبًا، وعيناها الجاحظتان لا تصدقان ما حدث لها، والملك لم يتمالك نفسه بعد، و(آرثر) يبتسم في هدوء..

- "هل ستساعدينني؟"

إنها حتى لا تملك القدرة على هز رأسها، لكنها جاهدت لتحرك عينيها بأن (نعم)، فغابت ابتسامة (آرثر) عن وجهه، وتسللت الصرامة إلى صوته، وهو يسأل:

- "من الذي قتل (فيلرز)؟"

الدماء تتسلل من بين أصابع (آرثر) لتسيل على صدر (صوفي)، والملك لم يتمكن حتى من غلق فمه الفاغر لآخره..

وبآخر ما تملك من طاقة الحياة، نطقت (صوفي)، ليخرج صوتها متحشرجًا:

- "فـ.. فلتون.. (جون فلتون).."

(جون فلتون) التي طلبت (هنريتا) رؤيته!

هذا ما كانت تخطط له إذن!

وأخيرًا همس الملك (تشارلز) غير مصدقًا:

- "لا أصدق.."

لكن (تشارلز) تجاهله تمامًا، وواصل فحيحه في

أذن (صوفي):

- "رائع.. والآن لو تركتك، هل ستعدينني أنك ستتوقفين عن نقل أحاديث الملك لمخدومتك؟"

لو تركتك؟.. ما الذي يقصد؟!..

تهز (صوفي) -والتي يبدو أنها صدقت- رأسها هزة خفيفة، ليزيد تدفق الدماء من بين أصابع (آرثر)، التي تقبض على عنقها بقوة لا ترحم..

وتعود الابتسامة الهادئة لشفتي (آرثر)، ليخفف من ضغطه على عنق (صوفي)، قائلاً:

- "سأعتبر هذا وعدًا، لن تحنثين به أبدًا.."

ثم إنه ترك عنقها ببساطة، لأنتفض أنا هذه المرة، وأنا أحدق في عنقها، الذي لم يحمل أثرًا لأي جرح..

مستحيل!

أنا رأيته يشق عنقها!!

ثم.. ثم إن الدماء لا تزال على صدرها، وأصابع (آرثر)، ووجه الملك، الذي فقد قدرته على النطق، وهو يرى (صوفي) تهوي على ركبتيها، وهي تلهث في عنف، ودموع الفرحة بالنجاة تنهمر من عينيها بلا توقف..

وبأناقة انحنى (آرثر)، ليضع منديلاً بين أصابعها، قائلاً:

- "نظفي نفسك ثم اتركينا.. فلدي ما أوّد مناقشته، مع الملك."

لكن (صوفي) -والتي يبدو أنها جنّت تمامًا- أخذت تبكي بهستريا، وهي تغادر الغرفة جريًا، كأنما الجحيم يمدّ ذراعيه ليختطفها..

أمّا أنا، فلقد نسيت كل شيء يتعلق بالفتاة صاحبة

الشبح، وقد تردد سؤال واحد في أعماقي، بألف صدى..

من هذا الرجل؟.. من؟؟.

* * *

بعد نصف ساعة كاملة، استعاد الملك قدرته على السيطرة على نفسه، ليجلس أخيرًا مواجهًا (آرثر) الذي جلس بهدوء شديد، واضعًا ساقا على ساق، عالمًا أن الملك لن يجرؤ على الاعتراض أبدًا..

وبصوت راجف قال الملك:

- "ما الذي تريد قوله؟"

- "هل ستصدقني بلا مناقشة؟"

ألقى الملك بنظرة سريعة على المنديل، الذي مسح به دماء (صوفي) عن وجهه، ثم أجاب:

- "نعم.."

- "رائع.. الآن أنت تعرف أن دوق (باكينجهام) قتل.. وتعرف أيضًا من قتله.. لكن ما لا تعرفه، أن أمامك سلسلة من الهزائم المخزية، كنهاية للمعارك التي بدأها عزيزنا (فيلرز).."

لم يعرف الملك، هل يأسف حقًا على رحيله، أم يلعنه على الورطة التي أوقعه فيها، لكنه صمت على أية حال ليواصل (آرثر):

- "أي هزيمة الآن ستضعف من موقفك كملك لهذه البلاد، وسيجد فيها البرلمان فرصة خصبة لانتقادك وتوجيه اللوم لك.."

أجاب (تشارلز) بمرارة:

- "أعرف.. أعرف، ولا أجد حلاً.."

- "وأنا هنا أحمل لك الحل.. لكن يجب أن تكون مستعدًا لدفع الثمن.."

بلهفة لا حد لها هتف (تشارلز):

- "أي شيء تطلبه.."

لكن (آرثر) كرر ببطء:

- "يجب أن تعرف ما هو الثمن الذي سأطلبه أولاً، لتعرف إن كنت قادرًا على دفعه.."

هنا تراجع الملك بظهره في مقعده وقد استعاد حاسته الملكية، ليقول:

- "وهل هناك ما أعجز أنا عنه؟"

- "مادام الأمر كذلك، فإنني أرغب في دماء.. دماء الأميرة ابنتك."

- " .... !! ".

* * *

5- الأميرة السرية..

صحيح أنني هنا للبحث عن الفتاة صاحبة الشبح، لكنني -أصارحك- انغمست تمامًا فيما حدث في تلك الغرفة، التي حوت الملك الذاهل و(آرثر) الهادئ كالغيوم ، حتى نسيت مهمتي الأصلية تمامًا..

إن الحوار الذي يدور في هذه الغرفة الآن، يستحق أن تنقشه كتب التاريخ نقشًا، على صفحاتها..

الملك يبتلع ريقه بصعوبة ليقول:

- "ابنتي.. أنا؟"

- "نعم.. ابنتك الأميرة (ليديا).."

- "(ليديا).. عمّن تتحدث؟.. بناتي لا يحملن هذا

الاسم.. ولا واحدة منهن.."

ـ "إنك تتحدث عمّن تعرف، وأنا هنا لأخبرك بما لا تعرف، ولم تكن لتعرف، لولاي.."

ـ "عن ماذا تتحدث بالضبط؟؟"

ـ "عنك حين كنت في السادسة عشر.. عن زيارتك لـ (ويلز).. عن حفل الشواء.. ذلك الذي أقمته مع رفاقك في الخلاء.. هل تذكر يا جلالة الملك؟"

وكمن ينفض الغبار عن ذكريات، حسبها ماتت تمامًا، بدأ الملك (تشارلز) يتذكر..

في تلك الليلة، أراق هو ورفاقه من النبيذ ما يكفي لتفقد أمة كاملة عقلها.. هو بالذات، شرب أضعاف ما شربه الجميع، وكأنه كان يتحداهم.. وهو أول من فقد وعيه في تلك الليلة..

لكنه حين استيقظ، وجد تلك الفتاة القروية تلملم ملابسها في خيمته وهي تبكي، ففهم، وإن لم يهتم..

إنه شرف لهذه الحمقاء!

لقد ظنّ حينها أن الأمر انتهى عند هذا الحد، لكنه هاهو الآن وبعد سنوات طويلة، يكتشف أن هذه الليلة أثمرت بابنة، لم يعرف إلا الآن أن اسمها (ليديا)..

وهاهو الآن مطالب بأن يمنح دماء هذه الابنة، لهذا الشاب الذي يجلس أمامه، يرمقه في هدوء، كأنه على وشك النوم..

كيف يجرؤ ؟!

وبغضب الدنيا هبّ الملك واقفًا، ليصرخ في ثورة عارمة:

ـ "من أنت يا هذا لتقايضني؟.. ألا تعرف أني قادر

على أن أحصل منك على ما أبغي، دون أن أدفع لك شيئًا؟؟"

أجابه (آرثر) ساخرًا:

- "حقًا.. أهذا ما تعرفه عني؟.. ألم يحدثك عني (فيلرز) ولو قليلاً.."

- "أعرف.. أنت ساحر، وتملك قدرات خارقة، وقدرة على معرفة ما سيحدث في المستقبل، لكن هذا كله من الممكن أن ينتهي بضربة سيف واحدة.."

بهدوء قام (آرثر)، واتجه بخطوات هادئة إلى أحد السيوف الذهبية الملعقة على الجدران من باب الزينة، ليتناوله ببساطة، قائلاً:

- "سيف كهذا؟"

تراجع الملك في خوف:

- "ما.. ما الذي ستفعله؟.. إنك في قصري ولن تخرج من..."

لكن الملك لم يجد فرصة لإكمال جملته، فبسرعته الخاطفة استل (آرثر) السيف من غمده، ليغرسه بدقة شديدة في قلبه..

قلبهُ هو!!

* * *

حين خرج الملك في النهاية من الغرفة، كان على قناعة تامة أنه سيمنح (آرثر) دماءه هو نفسه، لو أراد.. ولم أكن أنا لألومه في الواقع..

أنا أيضًا رأيت كيف غرس (آرثر) السيف في قلبه، لينتزعه ببساطة، ويعيده لغمده، وابتسامته لم تفارق وجهه..

لكنه لن يمنحه دماءه؛ بل دماء ابنته (ليديا)..

هل سيفعلها حقًا؟..

هل سيجرؤ؟!..

* * *

في تلك الليلة قرر الملك أن ينطلق في رحلة سرية إلى (ويلز)، ولقد كانت سرية بالفعل، فلابد أن الخدم الذي رأوا ما أصاب (صوفي) أدركوا أخيرًا أن عليهم ألا يتدخلوا فيما لا يعنيهم..

فقط انتقى (تشارلز) ثلاثة من أفضل حراسه، وارتدى مثلهم، لتنقلهم أحد العربات العسكرية التي تجرها الجياد إلى (ويلز)، وأنا -بالطبع- معهم، دون أن يشعروا..

لم يذهب معهم (آرثر) بل آثر انتظار الملك في القصر، لتكون أفخر غرف ضيافة القصر من نصيبه،

وعشرات التحذيرات للجميع، بأن أوامر هذا الضيف، يجب أن تطاع دون مناقشة..

صحيح أنني كنت أوّد البقاء معه لمراقبة ما سيفعله، حتى يعود الملك، لكن لسبب ما، شعرت أن ما أبحث عنه، سينتظرني هناك..

في (ويلز)..

و هكذا مضت الساعات في تلك الرحلة الشاقة بطينة كئيبة، لم ينطق فيها الملك ولو حرفًا واحدًا، بل قضى رحلته يقلب الأمر كله في رأسه، محاولاً اتخاذ قرار؛ لا يندم عليه كثيرًا أو طويلاً..

وفي النهاية، انتهى بنا المطاف أمام أحد المنازل المتواضعة، وقد بدأت شمس الفجر تشق طريقها بثقة في السماء، ناشرة ضوءها الذهبي في أرجاء المكان..

جو كهذا لا يوحي بشر، بل بصباح ربيعي دافئ

مطمئن..

جو كهذا لا يوحي بأن ما حدث في هذا اليوم كان من الممكن أن يحدث أبدًا.

* * *

6- ليديا

حين فوجئت العجوز (ماريانا) بثلاثة من حراس الملك يطرقون بابها مع ساعات الفجر الأولى، توجست خيفة، لكنها حين رأت الملك شخصيًا، كاد قلبها أن يتوقف هلعًا..

إنها تذكر الملك، وتذكر ما بدر منه يوم كان في السادسة عشر حين شرب حتى الثمالة، لكنها تعرف أن الأهم من هذا كله، أنها أخفت عنه سرًا ما كان لها أن تخفيه، وهاهو يوم دفع الثمن قد جاء..

صحيح أن (تشارلز) حاول أن يهدئ من روعها، ليجلسها في النهاية أمامه، فأخذت تذرف الدموع أمامه بلا

توقف، فصرخ هو الحراس قائلاً:

- "انتظروني في الخارج، ولا تسمحوا لأحد بالدخول أو الخروج، إلا بأمري.."

ثم إنه التفت إلى (ماريانا) الباكية ليحدجها بنظرة صارمة، طالت قليلاً ، قبل أن يقول أخيرًا:

- "لماذا لم تخبريني؟"

- "سامحني يا مولاي.. إنني.. إنني.."

لكن (تشارلز) كرر غاضبًا:

- "لماذا لم تخبريني يا امرأة؟"

- "خشيت أن تقتلني، أو أن تقتلها.. إنني خادمة تفوقك عمرًا، وما حدث لم يكن سوى خطأ غير مقصود، وأنا المسئولة و... و..."

وشعرت أنا بغصة مريرة في حلقي، وأنا أرى

الضحية تعتذر للجلاد عما بدر منه!

- "أرجوك.. ارحمنا وسنترك نحن البلاد كلها.. لن ترانا بعد اليوم، ولن تسمع عنا أبدًا.."

لكن الملك قال بصرامة:

- "أنت لن تقومي من على مقعدك، إلا بموافقتي.. أين هي..؟"

وتردد لحظة وهو يفكر..

أيقول (ابنتي) أم (ليديا)، لكنه قال أخيرًا:

- "أين هي؟"

- "نائمة في غرفتها.. أرجوك.. أنا لا أريد منك سوى حياتنا.."

سبحان الله!.. كان منح الحياة أو أخذها بيد هذا

البشري البائس، الذي لن يغنيه لقبه أو ثروته في شيء، يوم يأتي الحساب..

- "أريد أن أراها.."

قالها الملك بلهجة، شممتُ فيها رائحة الاشتياق..

نعم.. هذا الملك -وعلى الرغم من كل شيء- يريد أن يرى ابنته!..

ترددت (ماريانا)، فطمأنها الملك قائلاً:

- "لا تخافي.."

نطقها أخيرًا لتهدئ من روع الأم، التي كفكفت دموعها، وأسرعت لتوقظ (ليديا)، تاركة الملك يصارع عشرات الانفعالات والأفكار التي تموج بها أعماقه..

إنه عاجز تمامًا عن اتخاذ أي قرار..

أن تخسر كل شيء وتكسب ابنتك، أو..

إنني أشعر بما يشعر به تمامًا..

لحظات ثم عادت (ماريانا) بخطوات راجفة، ومن خلفها فتاة ترتدي منامتها، وتفرك عينيها الساحرتين في نعاس، وهي تتساءل متثائبة:

- "من هذا الذي يزور في الـ ..."

ثم إنها أزاحت يديها عن عينيها، لتبتلع تساؤلها في ذهول، ولأرى أنا وجهها بوضوح تام..

إنها هي..

هي..

الفتاة صاحبة الشبح..

إنها (ليديا)، التي فوجئت بملك البلاد، يجلس في ردهة دارها المتواضع، لتنسى القدرة على الحركة أو

النطق، ولينسى هو كل شيء، سوى أنه يحدق في ابنته التي لم يرها، حتى هذه اللحظة..

يا لها من جميلة.. يا لها من رقيقة.. يا لها من بريئة!..

حقًا، لقد نزعت حياة الملوك أي رقة أو جمال عن باقي أولاده، أو أن هذه الفتاة، حصلت على نصيبهم من الاثنين..

وبارتباك قالت (ماريانا):

- "انحني لجلالة الملك يا فتاة."

لكن الفتاة لم تفهم حتى ما قيل لها.. فقط تركت (تشارلز) ينهض ببطء من على مقعده.. يتجه لها، واللهفة تطل من عينيه.. يمد ذراعيه لها..

يحتضنها ويبكي!..

ويبكي، ويبكي، ويبكي..

* * *

بعد ساعات من البكاء، ومن الشرح ومن الاعتذار، وتبادل الذكريات، كانت شمس الظهيرة تنتصف السماء، وكان الملك قد اتخذ قراره..

- "(ليديا).. أريدك أن تهربي الليلة.. ابتعدي قدر الإمكان، ولا تخبرينني حتى بمكان تواجدك."

- "ماذا؟!"

- "لن يمكنني تفسير هذا الآن.. فقط حين أعلن في أحد الأيام أنني راغب في الاحتفال بأعياد الربيع، تعالي إلى القصر.. كنت سأترك لك بعض الحراس ليرافقونك، لكنني لا أثق في أحد..

صمتت (ليديا) تقلب الأمر في رأسها لهنيهة، ثم

أجابت:

- "لا.. لن نرحل.."

قالتها، فانتفضت (ماريانا) هلعًا، وهي ترى ابنتها تخالف الملك، الذي صاح:

- *"كيف تجرؤين ؟"*

- "إننا كما ترى- لا نملك سوى منزلنا هذا، ومزرعتنا التي كافحت أمي حتى تمتلكها، والتي منها نعيش الآن.. لن نترك هذا كله، لنجوب الأراضي، تاركين كل ما نعرف وكل من نحب، لنبدأ من جديد..

كان منطقها معقولاً، لكنني انتبهت إلى كلمة (من نحب) لأفهم الصورة كاملة على الفور..

الفتاة تحب ولا تريد ترك حبيبها حتى لو كانت حياتها معرضة للخطر..

لكن (تشارلز)، وقد تذكر أنه الملك، قال:

- "إنني لا أطلب منك، بل آمرك.. لو لم تتركا هذا المنزل الليلة، سوف.. سوف.."

أجابته (ليديا) بتحد:

- "سوف ماذا؟"

- "سوف أقتلكما بيدي، لأوفر على نفسي مشقة القلق عليكما.."

منطق معقول أيضًا، دفع (ماريانا) للهتاف:

- "الليلة.. الليلة سنرحل، ولن ترانا بعد اليوم."

- "بل سآركما حين يصبح هذا آمنًا.. وبالنسبة للأرض والمنزل.."

وأخرج من طيات ملابسه صرة امتلأت عن آخرها

بالعملات الذهبية، ليكمل:

- فهذا سيكفي ثمنًا لهما، وأكثر.. ولو احتجتما للمزيد في أي وقت، ستحصلان عليه..

عادت (ليديا) تردد غاضبة:

- "لكنني لا أريد الرحيل، ولا أن.."

أخرستها صفعة ملكية حارة، تركت الدماء محتشدة في وجنتها، والملك يقول:

- "قلت لك أنه أمر، وأنا أوامري لا ترد أبدًا."

هكذا لم تملك الفتاة سوى دموعها لتمنحها للملك:

- "لا أريد الرحيل.."

- صدقيني يا ابنتي، ولا أنا.. لكنه من أجلك أنت.. والآن يجب أن أرحل أنا، قبل أن يشعر بي أحد..

وهمّ بالرحيل بالفعل، حين نادت عليه (ليديا)، متسائلة:

- "كيف تكون الملك وتعجز عن حمايتنا؟؟"

صمت (تشارلز) طويلاً هذ المرة، ثم أجاب بلهجة تقطر مرارة:

- "حتى الملك يعجز أحيانًا.."

ومنكس الرأس، خرج الملك من الدار، بينما ظللت أنا في الداخل..

لقد عثرت على الفتاة، ولم يعد هناك مبرر لأعود للقصر.. أو هذا ما آمله..

وفقًا لما حدث حتى الآن، لم يعد هناك مبرر لمقتل الفتاة.. (تشارلز) حذرها بنفسه..

ما الذي حدث إذن؟..

من قتلها؟ وكيف؟!

* * *

7- يجب أن أراه !..

كما توقعت، لم يكد الملك يغادر، حتى أسرعت (ليديا) إلى أمها قائلة:

- "أمي.. يجب أن أودّع (مارجريت)، قبل أن أرحل."

- "أهذا وقته؟؟"

- "إنها صديقتي الوحيدة، ولن أرحل دون أن أودعها."

وما إن ارتدت ملابسها، حتى غادرت المنزل بخطوات هي أقرب إلى العدو،وأنا من خلفها، ألاحقها كظلها، لنصل إلى منزل (مارجريت)، التي كانت تحمل دلو

ماء جاءت به من البئر القريبة،"وتسير به متثاقلة، متجهة إلى منزلها، لتفاجأ بـ (ليديا) تنادي عليها صارخة:

- "*توقفييي يي ي.. لا تدخلي للمنزلللللللل لل لل ل...*"

توقفت (مارجريت) ذاهلة، ترمق (ليديا) التي أخذت تهرول تجاهها، وصراخها يملأ الفراغ المحيط بهما:

- "*انتظريني ي ي ي ي ي ي ...*"

ثم بلغتها أخيرًا، لتهوي على ركبتيها، ولتبدأ في اللهاث، فسألتها (مارجريت) بقلق:

- "ما الذي حدث؟"

- "نحن.. *هاه هاه*.. سوف.. نرحل.. *هاه هاه*.. اليوم.."

- " ماذا؟!! "

- "لا وقت للشرح.. *هااااااه*.. يجب أن تخبري (ويليام).. يجب أن يأتي إلي، قبل مغيب الشمس.."

- "إلى أين سترحلين؟ وما الذي حدث؟ ولماذا؟"

- "قلت لك إنه لا وقت للشرح.. فقط أصغ لي، ونفذي ما أطلبه.. اذهبي إلى (ويليام) الآن واطلبي منه أن يأتي ليراني، للمرة الأخيرة.."

ثم انتبهت فجأة أنها ستفتقد صديقتها، لتنهمر الدموع من عينيها فجأة، ولتقفز على (مارجريت) تحتضنها بقوة، أسقطت دلو الماء من يدها..

- "سأفتقدك يا صديقتي.."

- "أسقطت الماء يا حمقاء.. سأضطر للعودة للبئر.."

- "ليس الآن.. (ويليام) قبل كل شيء.. وداعًا.."

قالتها ثم بدأ تهرول مبتعدة، وأنا من خلفها.. هذه الفتاة تملك طاقة الأطفال، وسذاجتهم..

خسارة أن تُقتل.. خسارة..

لكن هذا ما سيحدث الليلة على أية حال!

* * *

وبعد أن وضّبت أمها (ماريانا) أمتعتهم كلها، أدركت أنهما لن يتمكنا من حمل هذا كله، وأن عليها البدء من جديد، لأخذ الضروري فقط، فنادت على ابنتها:

- "(ليديا).. ساعديني لننتهي سريعًا.."

لكن (ليديا) أمسكت ببطنها متظاهرة بالألم، وهي تجيب:

- "آسفة يا أمي.. أشعر بتوعك، وأعتقد أنه يجب أن أرتاح قليلاً، قبل أن نغادر.."

- "لكن.."

- "فقط سأشرب بعض الماء الدافئ، وألازم فراشي لساعة أو ساعتين، بعدها سنهرب من هنا.."

وقبل أن تمنح أمها فرصة للرد، أسرعت إلى غرفتها وأغلقت الباب عليها، ثم طفقت تنتظر جوار النافذة، تراقب الأفق، بحثًا عن فارسها (ويليام)..

ولنفسها همست:

- "أرجوك تعال.. أرجوك.."

وبالفعل لم تكد الشمس تشارف على المغيب، حتى طارت زهرة يانعة من النافذة لتسقط قرب فراش (ليديا)، التي لم تكد تراها، حتى أسرعت إلى النافذة، لتجد فارسها

(ويليام) يقف مبتسمًا في حب..

- "ويليام!.."

- جئت من أجلك، يا أميرتي..

واتجهتُ أنا إلى النافذة، لأرى (ويليام) هذا، لأول مرة..

طويل كالأفارقة.. لكنه نحيف، كأنه قادم لتوه من مجاعة.. عظامه كبيرة، وتبرز بوضوح من أسفل رداءه الخفيف.. يملك أكبر كفين رأيتهما في حياتي، وله وجه مريح، تطل منه عينان باسمتان وقد تألق شعره الذهبي في ضوء الشمس الغاربة كالتاج..

هذه المواصفات ليست جديدة.. إننا نذكرها جيدًا..

إنه (آرثر)!

الساحر!!

* * *

كنت ذاهلاً وعاجزًا عن فهم الموقف، بينما (ليديا) تقفز عبر نافذتها، لترتمي في صدر فارسها (ويليام)، ودموعها تسبقها، على نحو دفعه للتساؤل:

- "ما الذي حدث يا (ليديا)؟؟"

هكذا بدأت (ليديا) تحكي له كل ما حدث من الفجر وحتى رأته، وإمارات الدهشة وعدم التصديق تتعاظم على وجه (ويليام) تدريجيًا، ليهتف في النهاية بصوت مبحوح:

- "لن أراكِ بعد اليوم؟!.. مستحيل!"

- "لا مفر.. ما هي إلا ساعة أو أقل، وسنرحل إلى الأبد.."

- "وأنا لن أتركك ترحلين.. أعني، لن أتركك

ترحلين وحدك.."

- "ستأتي معنا؟؟"

- "بل أنت ستأتين معي.."

صدمت (ليديا) من رده، فشرح هو:

- "سآخذك إلى حيث سنتزوج، ونعيش سويًا، ولن يفرقنا أحد.."

- "وماذا عن أمي؟.. لا يمكنني أن أتركها.."

- "أنت تعرفين أنها لا تطيقني، ولن ترضى بي مهما حاولت.. والآن فهمت لماذا.. إنها لن تزوج ابنة الملك، لمزارع فقير.."

استوعبت (ليديا) هذا المنطق لأول مرة، فقالت:

- "لازلت أصر على أنني لن أتركها وحيدة.."

- "إذن سترحلين معها، ولن تريني بعد اليوم.."

- "أنا لا أريد هذا.."

- "لكنه خيارك أنت.. الآن ستقررين، إن كنت ستذهبين معي، أم معها.."

صمتت (ليديا) في حيرة، وبدا أن الصراع الدائر في عقلها الآن أقوى من قدرتها على التحمل، لكن أمها التي ظهرت عند النافذة فجأة صارخة:

- "(ليديا).. ما الذي تفعلينه؟؟"

انتفضت (ليديا) في رعب، وأمها تواصل:

- "ألم أحذرك من رؤية هذا الوغد ؟.. تعالي هنا فورًا.."

الآن يتحول الصراع، من الاختيار بين حبيبها

وأمها، إلى الاختيار بين حبيبها وبين عجوز غاضبة، تصرخ بعصبية.. صراع نتيجته محسومة سلفًا..

- "أمي، أنا لن آتي معك.."

- " ماذا؟!! "

- "سأرحل مع (ويليام).. سأتبع قلبي.."

قالتها والتحدي يطل من عينيها، فصاحت أمها بهلع:

- "لكن الملك أمرنا بالرحيل، و.."

قاطعها (ويليام):

- "وأنا سأهرب بها بعيدًا.. سأحميها بحياتي.."

- "اخرس أنت أيها الوغد.. (ليديا).. إنني آمرك بالمجيء معي."

فتجيب (ليديا):

- "وأنا قلبي يأمرني بالذهاب معه."

- "إذن سأجبركِ على تركه."

قالتها الأم، وغابت من النافذة، متجه إلى الباب لتأتي إليها، فقال (ويليام) في لهفة:

- "الآن يا (ليديا).. الآن أو لا للأبد.."

لحظة تردد، ثم تحسم (ليديا) أمرها:

- "هيا بنا."

على الفور صفر (ويليام) صفيرًا طويلاً منغومًا، ليأتي جواده الرشيق من الغابة القريبة، وليحمل (ويليام) أميرتنا بساعده القوى، ليضعها على صهوة جواده، وليعتليه هو الآخر أمامها..

وفي اللحظة التي وصلت فيها الأم إليهما، كان الجواد يضرب الهواء بحافريه الأماميين، فينطلق كالسهم

مبتعدًا،و(ليديا) تصرخ:

- *"وداعًا يا أمي.. سنلتقي يومًا ما.."*

وتصرخ (ماريانا) مرتاعة:

- *"ليديا//////////////////////"*

لكن ابنتها تغيب في الأفق بسرعة، مخلفة وراءها عاصفة من الغبار، وقد عادت دموعها تشوي وجنتيها..

ولنفسها تهمس:

- "وداعًا يا أمي.."

أما أنا، وقد أخذت ألاحقهما، أخذت أحاول الإجابة عن سؤال منطقي للغاية..

إن كان (وليام) هو (آرثر).. فلماذا فعل هذا كله؟

لماذا؟!

* * *

8- ليلة الدم..

حبيبان على صهوة جواد، ينطلقان إلى حيث لا يعرفان، فكل ما يبغيانه هو الابتعاد وكفى.. فهل يملكان فرصة؟..

لو كان هذا فيلمًا رومانسيًا، فربما كانت الإجابة نعم، لكن في قصتنا هذه، نحن نعرف النهاية مسبقًا، فقط نحن نحاول الآن فهم كيف حدثت..

وأنا سأخبرك الآن، كيف كانت بداية النهاية..

فجأة، شقّ الهواء سهم رفيع، مصدرًا فحيحًا طويلاً، قبل أن يخترق عنق (ويليام)، الذي لم يجد حتى الفرصة ليصرخ، بل طار من على صهوة جواده، وسقط

أرضًا، بينما دوى فحيح سهم آخر، اخترق صدر الجواد، الذي أطلق صهيلاً أخيرًا وهو يتلوى واقفًا، ليسقط (ليديا) الصارخة، قبل أن يهوي هو ذاته بلا حراك..

وفي الغابة المظلمة، دوى صراخ (ليديا) بألف صدى، وهي تسرع نحو فارسها، الذي ندت عنه حشرجة مكتومة، وهو يمسك بعنقه الذي سالت منه الدماء ببطء..

- *"وليااااااااااااااااااااام!"*

لكن (وليام) لا يرد..

وكالأشباح، خرج سبعة رجال ملثمين ومتشحين بالسواد من وراء الأشجار، شاهري سيوفهم في وجه (ليديا)، التي أخذت تصرخ في رعب هستيري..

من لحظة كانت وراء فارسها ينطلقان إلى حيث سيتزوجان، والآن هي على الأرض جواره، تراه يحتضر،

بينما يحيط بها قتلته في دائرة مغلقة..

رآهم (ويليام) فشعر بالمرارة وهو عاجز أن يحمي حبيبته منهم، بينما تقدم أطول الرجال تجاههم بتؤدة، ثم وببطء واثق أزاح اللثام عن وجهه..

طويل كالأفارقة.. لكنه نحيف كأنه قادم لتوه من مجاعة.. عظامه كبيرة وتبرز بوضوح من أسفل رداءه الخفيف.. يملك أكبر كفين رأيتهما في حياتي، وله وجه مريح، تطل منه عينان باسمتان وقد منحه ضوء القمر بريق فضي شاحب..

(آرثر).. الحقيقي!

وما إن رآه (ويليام) حتى انتزع كلمة واحدة من حلقه:

- *"أخي!!"*

وذاهلة همست (ليديا):

- "آرثر!!"

أما (آرثر) فقد أجاب بهدوئه الرهيب:

- "لقد حان وقت الحساب.."

* * *

- *" أحسبك الآن في حالة تسمح بأن أقص عليك ما حدث.."*

يقولها (آرثر) بهدوء شديد، تسللت إليه لمحة من الاستمتاع، وقد استرخى على مقعد مريح، في مقره القريب من الغابة، محدثًا (ليديا)، التي تمددت أمامه على فراش معدني قيدت إليه بأغلال معدنية، تمنعها من الحركة تمامًا، وقد أخرستها تلك الخرقة المحشورة في فمها ، لتمنحه هو الهدوء المطلوب لقصته:

- "لقد بدأ الأمر كله يوم اختاروني لأنضم للجيش، وتركوا أخي (ويليام) ليرعى أمي المريضة.. كنتِ قبلها فتاتي أنا، وكنت أحبك للدرجة التي دفعتني لأحارب حفاظًا عليكِ من أي شر محتمل.. هل تذكرين ؟.. هل تذكرين كيف بكيت بين ذراعيّ وأنا أخبرك أنني راحل؟؟"

تجاوبه (ليديا) بالدموع وأفاجأ أنا بما سمعته..

(ليديا) كانت حبيبته هو، لكن..

- "لكن (ويليام) استغل غيابي جيداً، وبدأ يحاول أخذ مكاني في قلبك.. بدأ يحاول أن يأخذك مني، وأنت الشيء الوحيد الذي أحببته في حياتي كلها.. وأنتِ سمحت له.."

مزيد من الدموع تنهمر من عيني (ليديا)، بينما أستوعب أنا الموقف جيدًا..

إنه الانتقام إذن.. لكن، أي انتقام يصل إلى هذا الحد!..

- "أظننتما أنني لن أعود؟.. لابد أن هذا ما حدث، لكنني عدت.. عدت لأبحث عنك حاملاً لك زهور الغابة كلها بين يدي، واستقبلتني أنتِ يومها باسمة، لتناديني باسم أخي.. (ويليام).. هل شعرتِ يومها يا (ليديا) بقلبي وهو يتمزق، وأنت تلقين بنفسك على صدري، وشفتاك تنطقان باسم أخي الخائن؟. لا.. لقد نسيتني تمامًا.. كنت الوحيدة التي تستطيعين التمييز بيني وبين أخي، لكنك في هذا اليوم أخطأتِ، لأعرفَ كيف يموت الحب، وكيفَ تولد الكراهية..

الآن أرى (آرثر) وقد ذاب هدوءه، لتحمل ملامحه الألم والبغض والرغبة العارمة في الانتقام..

- "يومها وبعد أن تركتك، عدت إلى الحرب في

(أسبانيا) طالبًا الموت.. لم يشعر بي أحد، وحتى أمي التي كانت تحتضر، لم تعرف بمجيئي ولا بذهابي.. لقد كنت أريد أن أبتعد عن خيانتك، ولو ذهبت إلىٍ آخر الدنيا.."

و يبتسم في مرارة قبل أن يواصل:

- أتعرفين.. يقولون إنه في الحروب، من يطلب الموت لا يناله، وأنا كنت أطلب الموت لأنسى.. في أحد الليالي هجم الأسبان علينا بعد أن حاصرونا جيدًا، ليبدءوا في إبادتنا بلا رحمة؛ حتىَ لم يعد هناك سواي.. فجأة وجدتني والموت يحيط بي من كل صوب، ولا شيءَ معي سوى خنجري، وبدا لي أنها النهاية، لكنني تذكرتك فجأة.. تذكرتك في صدري تنطقين اسم أخي، فاستبد بي الجنون. ولم أفق إلا ودماء الأسبان، تسيل أسفل قدميَ كالنهر.. قتلتهم جميعًا بخنجري وغضبي..

وصمت يتذكر هذه الليلة بمزيج من الغضب

والسخرية، قبل أن يقول:

- "بعدها رأيته.. رأيتُ الكاهن الأسود.."

وانفجر ضاحكًا فجأة، قبل أن يواصل:

- "يقولون أنه لا يأتي إلا حين يشاء.. ويقولون أنه يولد من بين الموت والدمار، ويقولون أنه ينتقي من يظهر لهم، ولقد كنت أنا سعيد الحظ الذي انتقاه ليلتقي به، وليعلمه فنون السحر.."

وبخطوات هادئة، اقترب من (ليديا) لينحني عليها قائلاً:

- هل رأيت الكاهن الأسود من قبل؟.. لا.. إذن دعيني أخبرك القليل عنه.. إنه الشر كما ينبغي له أن يكون.. القوة في أعتى صورها.. والسحر بلون اسمه.. إنه يعطي الكثير، لكنه يأخذ الثمن باهظًا.. دائمًا ما يأخذ

الكاهن الأسود الثمن.."

وشدّ قامته ليقول:

- "لقد أعطاني الكاهن الأسود مفاتيح الأسرار.. بها عرفت كيف أعود من الحرب، وبها عرفت حقيقة أنك ابنة الملك، وبها عرفت كيف سيكون انتقامي.. لكن الثمن الذي دفعته كان فوق كل ما عرفت.."

وبحركة سريعة، شق ثوبه ليكشف عن صدره، لتشهق (ليديا) في رعب، ولأنتفض أنا في ركن الغرفة، وأنا أتبع هذا كله..

فأسفل الثوب رأيت جسد (آرثر) لأول مرة..

رأيت العظام، التي امتزجت باللحم المتعفن، بالدماء الجافة، بالرائحة الكريهة، باللون الأسود الكئيب يصبغ هذا كله، كأنها بصمة الكاهن الأسود..

من هذا الكاهن؟.. لم أعرف حينها.. لكنني يومًا ما سأعرف، وسأدفع الثمن أنا أيضًا..

يومًا ما.. لكنه ليس اليوم..

ومبتسمًا في مقت أعاد (آرثر) الثوب مكانه، ليواصل:

- "أترين يا (ليديا) ما هو ثمن الخيانة؟.. لولاك لما حاربت، ولولاك لما عدت بإرادتي إلى الموت، ولولاك لما منحت الكاهن الأسود حياتي، لينتهي بي الأمر جسدًا ميتًا، لا ينبض قلبه ولا يحيا سوى بدماء الآخرين.. وأنا اليوم سأحتاج لدمائك.."

عند هذا الحد استغربت حقًا أن (ليديا) لم تفقد الوعي، وإن بدا عليها أنها جنت تمامًا، وقد جمدت ملامحها في نظرة ذاهلة مخيفة..

- "بالطبع كان يمكنني أن أنهي الأمر سريعًا، وأقتلك دون أن أذهب إلى الملك بخطة طويلة معقدة، لكن الانتقام طبق يحلو تناوله باردًا.. اليوم وقبل أن أقتلك، سأخبرك أن (ويليام) يحتضر في الغابة دون أن يجد من ينقذه؛ وهذا ما يستحقه أخي.. وإن موتك، سيكون بموافقة الملك ذاته.. بموافقة أبيك..

ثم إنه جذب نفسًا عميقًا ليهدئ من انفعاله، بينما أخذتُ أتابع هذا كله عاجزًا عن التصديق..

أي انتقام هذا؟.. وأي كراهية؟..

إن الأحمق نسى أنه يتعامل مع فتاة مراهقة، ستمنح قلبها لأول من يمنحها زهرة، فما الذي كان ينتظره منها، وقد تركها ومضى إلى حرب، لا يعود منها إلا أصحاب المعجزات؟

إن ما فعله حتى الآن يكفي..

لو تركها الآن، ستمضي ما بقى لها من حياة، تهيم

على وجهها في الطرقات كالمخابيل، لكن من الواضح أنه لن يتوقف عند هذا الحد..

- "ما سيحدث الآن هو أنني سأستخلص منكِ دماءك وأنت حية، لأملأ بها هذا الوعاء في ركن الغرفة، لأرقد أنا داخل الوعاء.. هكذا سيتمكن جسدي من المواصلة لبضعة أشهر، بعدها سيأتي من سآخذ دماءه بذات الطريقة.. فكّري في الأمر بهذه الصورة.. دماءك هي ما سيمنحني الحياة، بعد أن منحتني خيانتك الموت.. أعتقد أن هذا عادل بما يكفي.."

قالها ثم انحنى بطريقة مسرحية، قبل أن يقول:

- "لكن قبل أن أبدأ، يجب أن أقدم لكِ ضيفي.. أعتقد أنك تعرفينه جيدًا.."

وأشار إلى الرجل الواقف قرب الباب، ليخرج على الفور، وليعد ومعه وجه مألوف..

الملك (تشارلز الأول)..

دخل مهزومًا، بائسًا، منكس الرأس، ومزيج من المرارة والألم يطلان من عينيه، وهو يرى ابنته في هذا الوضع، والتقت عيناه بعينيها اللتين صرختا (أنقذني يا أبي)، لكنه أشاح بوجهه بعيدًا، ليستقبله (آرثر) بوجه صارم:

- "والآن يجب أن تقرر.. ابنتك، أو العرش.."

بالنسبة لي لم يكن الخيار يحتاج لتفكير.. بالطبع عليه أن ينقذ ابنته..

لكن حياة الملوك، تنزع الكثير من قلوب من اعتادوها..

و حتى (تشارلز) كان يعرف أنه لو وضع في اختيار بين أن يكون (أبًا) أو (ملكًا)، فعليه أن يختار ما هو

أضمن له وأهم.. ثم..

ثم إنه لن يقدر على مواجهة الهزيمة مرة أخرى..

لو خسر هذه الحرب، ستكون بداية النهاية لمُلكه..

لن يرحمه البرلمان، ولن يتركه الشعب دون حساب، وهو يمتص دماءهم وأموالهم من أجل حروبه، التي لا تنتهي..

نعم..

ثم إنه كملك، عليه أن يسعى للنصر مهما كانت التضحيات..

المهم ألا يضحي بعرشه هو!..

نعم.. سيفعلها من أجل (بريطانيا) العظمى.. سيدفع ثمن النصر بدماء ابنته..

و هكذا هزّ رأسه ببطء بالموافقة، فابتسم (آرثر)

برضا، وقال:

- يمكنك أن ترحل إذن..

- وما الذي يضمن لي، أنك ستفي بوعدك؟

أخرج (آرثر) بضعة أوراق من طيات ملابسه، ألقى بها لـ (تشارلز)، قائلاً:

- هذه هي خطط الجيوش الفرنسية والأسبانية، بمعلومات كاملة عن تسليحهم وتحركاتهم ونقاط ضعفهم.. اعتبرها بداية، فبعد أن أنتهي هنا، سأقود جيوشك بنفسي نحو النصر، لكنني حينها سأحظى بما كان يحظى به (جورج فيلرز)..

- "تريد أن تكون دوق (باكينجهام)؟.."

- "بل أريد السلطة.. السلطة المطلقة."

بُهت الملك من رده، ووقف مكانه يحدق فيه بمزيج

من الرعب والذهول والأسى، ليصرفه (آرثر) قائلاً:

- "و الآن.. ارحل.. فلن تحب رؤية ما سيحدث."

مرة أخرى التقت عينا (تشارلز) بعيني ابنته، اللتين وارتهما الدموع، ومرة أخرى بدا الملك وكأنما ينزف الحزن في أعماقه.. لكنه في النهاية...

تركها ورحل..

و ما إن أغلق الباب من خلفه، حتى استدار (آرثر) ببطء، ليواجه (ليديا) مبتسمًا، وهو يستل خنجره الصغير من كمه:

- والآن، سأحاول أن أنهي عملي سريعًا.. فقط لا تقاوميني..

و بسرعته الخرافية حرك ذراع، ليشقّ الخنجر الهواء بصفير حاد..

و شعرت (ليديا) بشيء دافئ يسيل من ذراعيها، وبأنبوبين معدنيين يخترقان شرايينها بلا رحمة، ليبدآ في امتصاص دمائها، وبالدموع تجف في عينيها فجأة..

ثم العرق..

عرق بارد، غمر جسدها فجأة، لترتجف في ضعف، والحياة تتسرب منها في صمت قاس..

ثم بدأ كل شيء يظلم من حولها، في بطء شديد..

يظلم، ويظلم، ويظلم..

و ينتهي كل شيء..

* * *

و عند البحيرة، جلست أنا في النهاية، والغضب يحرقني بلهيبه..

من حولي، ترسل الشمس بأشعة الفجر الباردة، لتنعكس على صفحة البحيرة بألف بريق، وعلى فروع الأشجار تتثاءب الطيور مستيقظة، لتبدأ رحلتها للبحث عن الطعام، وفي المنازل المجاورة توقد الأمهات المدافئ، ليبدءوا في تحضير الإفطار لأزواجهن وأطفالهن، أما أنا فأجلس هنا، جواري شبح (ليديا) كما رأيته أول مرة، ينظر لي في حزن..

هكذا ماتت (ليديا)..

هكذا قُتلت..

لم يكن بيدي أن أنقذها، فلست هنا لأغير الماضي أو لأتحدى القدر، لكنني هنا لشيء آخر..

أن أنتقم لها..

أنا هنا، ليدفع قتلتُها الثمن..

هذه مهمتي، وهذا هو قدري..

و هذا ما سأفعله.

* * *

9- سأنتقم..

الآن أقرر أن أتجسد ماديًا في هذا العالم، وهذا سيمنحني اثنتي عشرة ساعة فحسب، قبل أن يكون عليّ أن أغادر هذا الزمن نهائيًا..

اثنتي عشرة ساعة، لأخطط لانتقامي وأنفذه، مع الوضع في الاعتبار أنني سأفقد حالتي الشبحية.. أي أنه لن يمكنني التسلل ولا المراقبة، وسأكون معرضًا للموت..

تمامًا كأي بشري يحيا في هذا الزمن..

لكن عليّ أولاً أن أرد على سؤال هام..

إن كان جسد (آرثر) ميتًا كما يزعم.. فكيف يمكنك أن تقتل شخصًا ميتًا؟!..

سؤال جدير بالاهتمام، وإجابته هي الطريقة

الوحيدة لأنفذ مهمتي..

و لأعود إلى زمني.

* * *

لكنني لن أنسى (تشارلز)، فهو أيضًا يجب أن يدفع الثمن..

هو من ضحى بابنته من أجل عرشه، وهو من تركها لهذه الميتة الشنيعة التي كانت تنتظرها..

إنني أعرف الكثير عن تاريخ هذا الزمن، وعن أسراره، من وسط الذكريات التي نقلها جدي لعقلي، لذا أنا أعرف إلى أين سأتجه بالضبط..

أنا الآن أسير في طرقات المدينة، وقد ارتديت ملابس تلائم هذا العصر، وأشعر وكأنني كنت هنا من قبل..

(ديجافو)؟.. ربما.. المهم أنني أعرف طريقي

جيدًا..

سأدخل في هذا الزقاق يمينًا، ومنه سأعبر إلى تلك الربوة، التي تحمل على قمتها منزلاً أنيقًا، تحيط به حديقة غنّاء، لأجتاز مدخل الحديقة، ومنها إلى مدخل المنزل ذاته..

أطرق الباب ثم أنتظر في صمت، لتفتحه أخيرًا خادمة مسنة، جاهدت لتنظر لوجهي متسائلة:

- "من؟"

- "أهذا منزل اللورد (أوليفر كرومويل)؟"

- "هو منزله.. من أنت؟"

- "أخبريه أنني صديق، يحمل له خبرًا هامًا."

هكذا سمحت لي بالدخول، لأقف في ردهة المنزل منتظرًا، بينما غابت هي في أحد الغرف، لتخرج منها في النهاية، ومعها رجل قوى الملامح، متين البنية، يطل

مزيج من الوقار والذكاء من عينيه..

اتجه إلي الرجل قائلاً:

- "هل لي أن أعرف هوية ضيفي الكريم؟"

- "أأنت (أوليفر كرومويل)؟"

- "أنا هو.. دورك لتعَرَّف عن نفسك.."

فأجيبه بلهجة خاصة:

- "لا يهم من أنا.. المهم ما أحمله لك من أنباء.. اجلس رجاءً فقد يطول حديثنا.."

و ما إن جلسنا حتى بدأت في الشرح..

شرح طويل مستفيض، لم أهمل فيه ولو تفصيلة صغيرة، مما يحمله عقلي من تفاصيل..

و في النهاية قلت:

- "لك أن تصدقني، ولك ألا تفعل.. فقط تذكر أن

مصير البلاد سيتوقف على قرارك."

بحيرة أجاب (كرومويل):

- "أعدك أنني سأفكر طويلاً ، قبل أن أتخذ قراري."

و هو رد لا يخلو من حكمة وتحذلق.. لكنني أبتسم وأرحل..

لقد انتهت مهمتي هنا، وهكذا يتبقى لي هو..

(آرثر)..

* * *

أنا أعرف مقر (آرثر) السري، فلازالت جثة (ليديا) الخاوية من الدماء فيه.. ولابد أنه الآن يرقد في الوعاء الذي يحوي دماءها، يمنح بعض الحياة لجسده الميت..

و مقره يحرسه سبعة رجال أشداء، مسلحين بالسيوف والدروع والسهام، مما سيضعني في مواجهة

غير عادلة، لو حاولت الدخول بالطرق التقليدية..

أي أنني أحتاج لفكرة لأدخل وأخرج آمنًا، ودون أن أقضي نحبي في هذا الزمن الكئيب..

فكرة تمكنني من تنفيذ مهمتي، والعودة إلى زمني..

أحتاج لفكرة لأسـ .. نعم.. ربما.. وجدتها!!

دخولي إلى مقر (آرثر)، لن يكون إلا عن طريقها..

(هنريتا ماريا)..

* * *

كانت الخادمة (صوفي) قد بدأت تتعافى وتستعيد عقلها، لكنها لم تنطق بحرف عمّا حدث في ذلك اليوم مع (آرثر) حتى لملكتها (هنريتا).. تلك الذكريات لا تخص سوى صاحبها ولا يفضل سوى نسيانها، وهي لن تنساها بسهولة..

لذا وحين رأيتها في حديقة القصر -والتي لم يكن

التسلل إليها عسيرًا- كانت صامتة شاردة، يحمل وجهها نظرة من عرف أكثر من اللازم، ويتمنى لو لم يعرف، لكن هذه النظرة تحولت إلى الدهشة حين ناديتها باسمها، لتقول باستغراب:

- "أنت تعرفني؟"

- "نعم.. لكنني لم آت هنا من أجلك.. إنني راغب في لقاء مخدومتك."

تعاظمت الدهشة في ملامحها، وهي تهتف:

- "من أنت؟"

- "لا يهم من أنا.. فقط أخبريها أنني هنا، من أجل ما حدث على يد (فلتون)، وهي ستفهم الباقي.."

و يبدو أن خبر مقتل (جروج فيلرز) على يد (فلتون) لم ينتشر بعد، فلم تفهم (صوفي) كيف عرفت أنا بهذا، لكنها قررت أنني شخص لا يُستحب العبث معه،

فقالت:

- "انتظرني وسأعود سريعًا.."

و تركتني بخطوات هي أقرب إلى العدو، لتغيب داخل القصر، بينما ظللت أنا في مكاني، مختبئًا خلف أشجار الحديقة الضخمة.. وما هي إلا دقائق حتى عادت إليّ لتقول:

- "اتبعني.."

تبعتها واثقًا من أن جنود الملك لن يعترضوا طريق شخص يسير مع خادمة الملكة، لكنها أخذتني -عبر مدخل سري في الحديقة- إلى مجموعة سلالم وممرات سريةَ، قادتنا في النهاية إلى قاعة صغيرة مضاءة بالمشاعل، تركتني فيها قائلة:

- "انتظر هنا.."

لم أرد، وأنا أفكر في عقلية هؤلاء الملوك الذين

يبنون في قصورهم ممرات سرية أكثر من الممرات العادية، وكأنهم ينتظرون اليوم الذي سيقتحم فيه أحدهم القصر ليقتلهم..

حالة متطورة من جنون الارتياب يعاني منها الملوك، ولا أحمل لها تفسيرًا، وأنا أفكر في عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، الذي كان ينام في ظل شجرة على قارعة الطريق، آمنًا مطمئنًا..

لكنني انتبهت في لحظة إلى طبيعة موقفي الحالي..

إنني الآن أسير هذا القصر، فأنا لم أحفظ طريق الخروج، ولو أتت الملكة الآن بمن يجبرني على البوح بأسراري ليقتلني في النهاية- فلن يشعر بنا أحد..

لكن، لأتظاهر بالتماسك..

فلا أجمل من رائحة الخوف في آذان من تخشاهم..

عبر أحد المداخل السرية، أتت الملكة (هنريتا)

بجمالها ووقارها وبنظرة قلق، تحاول أن تخفيها في عينيها، لتسأل على الفور:

- "من أنت؟ وما الذي تعرفه بالضبط؟"

فأجيبها محاولاً طمأنتها:

- "أنا هنا لأساعدك، وما أعرفه أكثر مما قد يستوعبه خيالك."

- "و ما الذي تريده بالضبط؟"

- "مصلحة مشتركة.. لقد تخلصتِ من (جورج فيلرز) ولستُ ألومكِ على هذا القرار، لكنك لم تتخلصي بعد ممن كان يقود (فيلرز) كالدمية."

بدت الحيرة في عيني الملكة، فبدأت أشرح لها ما حدث، وأخذت هي تصغي لي ذاهلة، لتصيح في النهاية غير مصدقة:

- "مستحيل!"

- "لك أن تصدقيني، ولك أن تظني بي الظنون.. المهم الآن، أنك لو لم تساعديني، ستكتشفين أن أيام (فيلرز) كانت أيام السعد عليك."

قلتها فصمتت الملكة تفكر، وشعرت وكأنني أصغي لما يدور في عقلها الآن..

لو أنني محق، فهذا يعني أن أيام الخراب قادمة لا محالة، وهذا الخراب قد يمتد ليطول وطنها الأم(فرنسا)، وهذا ما لن تقبله أو تتحمل حتى احتمالية حدوثه..

و لو كنت أكذب، فهذا لن يضيرها في شيء.. لكن هذا سيتوقف عليّ..

- "ما الذي تحتاجه مني بالضبط؟"

أجبتها بهدوء:

- "ما أحتاجه منك، هو أن تساعدينني على قتل رجل ميت.. ولنفعل هذا، سيكون علينا أن..."

و هكذا بدأت أشرح لها خطتي دون أن تقاطعني هي، ولو مرة واحدة..

و حين انتهيت هذه المرة، قالت هي دون تفكير، وبحسم يليق بملكة:

- "لك ما أردت.. لكنك تدرك جيدًا أنك قد تهلك أثناء محاولتك لتنفيذ هذه المهمة."

- "أعرف.. لكن لا شيءَ بلا ثمن، في هذا الزمن."

- "عظيم.. ستقودك (صوفي) إلى الخارج، وستجد ما أردت في الوقت المحدد.."

و بهدوء استدارت لتغادر القاعة، ولتأتي لي (صوفي) قائلة بهدوء هذه المرة:

- "اتبعني.."

و تبعتها، وأنا أفكر..

أمامي ست ساعات، وسيكون علي مغادرة هذا

الزمن..

ست ساعات فحسب..

فهل سأتمكن من تنفيذ مهمتي؟

و هل سأنجو؟؟

* * *

مع غروب الشمس، وصلت أنا وفصيلة الجنود - التي وضعتهم (هنريتا) تحت تصرفي- إلى الغابة المجاورة لمقر، (آرثر) السري، لنراجع الخطة التي وضعتُها للمرة الأخيرة..

كنت أرتدي زيًا مماثلاً لزيهم، وقد حملت مرسومًا ملكيًا، عليه الختم الملكي، يطلب استدعاء (آرثر) ورجاله إلى القصر، بأمر مباشر وصريح من الملك (تشرلز)، وكنت أحمل أمنية، أن يصدقنا (آرثر) ليغادر مقره بلا مقاومة..

و متماسكًا أمرت الجنود:

- "هيا بنا.."

لنتجه جميعًا إلى مقر (آرثر) وليستقبلنا رجاله الملثمون بالسواد، بنوع من التوتر والارتياب، ليتجه لنا أضخمهم حجمًا، قائلاً:

- "ما الذي تريدونه؟"

أجبته أنا بعنجهية تتناسب مع كوني من جنود الملك (تشارلز):

- "إنني أحمل مرسومًا -من الملك شخصيًا- يطلب فيه استدعاءكم إلى قصره فورًا."

و ناولته المرسوم، فطالعه متشككًا للحظات، قبل أن يقرر:

- "انتظروا هنا.."

ثم نظر إلى رجاله:

- "راقبوهم جيدًا.."

و غاب داخل المقر لبرهة عاد بعدها ومعه (آرثر) الذي بدا عليه الانزعاج الشديد، وهو يتجه إليّ:

- "ألا يعرف ملكك أنني من يقرر أين نلتقي ومتى؟"

فأجبته بصرامة:

- "إنني أنفذ أوامر الملك."

- "وأنا لا أنفذها.. هيا.. اذهب."

- "لو لم تنفذها، سأضطر إلى إجبارك.. إنها أوامر الملك."

بهت (آرثر) من ردي، وبدا عليه وكأنه يقلب احتمالات المقاومة في رأسه، ثم قرر أن حقن الدماء هو الأنسب، ليقول في النهاية بغضب:

- "لن تعرف أي خطأ اقترفت إلا متأخرًا.. متأخرًا

جدًا."

لكنني أجبته ببرود:

- "اجمع رجالك كلهم، فسيأتون معنا."

- "سأترك من يحرس المقر في غيابنا."

- "أنا سأحرسه.. أوامر الملك."

لكلمة (أوامر الملك) طابع استفزازي محبب، لكنني أراهن على أن (آرثر) لن يرتكب أي حماقة الآن..

إنه الفضول، يقتله الآن ليعرف سر استدعاء الملك المفاجئ هذا، لذا سيكبت في أعماقه تلك الرغبة العارمة بأن يطيح برؤوسنا كلنا، ليستحم بدمائنا..

لذا جمع (آرثر) رجاله في النهاية ليتقدموه، وهو يتجه بهم إلى فصيلة جنود الملك، ليتوقف أمامي بالضبط، وليقول وأنفاسه تلفح وجهي:

- "لو لمست ذرة غبار في المقر سأمزقك.. ببطء شديد."

قالها، ثم تحرك يحيط به رجاله، يحيط بهم جنود الملك، ليتحركوا بسرعة نسبية مبتعدين عن المكان، بينما ظللت أنا عند مدخل المقر السري أنتظر غيابهم في الأفق، لأدخل.

دقائق وابتعلهم ظلام الغابة، فهمست لنفسي:

- و الآن أتحرك أنا.

و بسرعة دخلت إلى المقر، لأعبر الممرات الحجرية المضاءة بالمشاعل إلى قاعة (آرثر) الخاصة، حيث شهدتُ مقتل (ليديا) التي لم أجد جثتها في الداخل..

حتى الوعاء الضخم الذي جمع فيه دمها لم يكن هناك، لكني لم أهتم ، فالوقت لا يسمح برفاهية الاستغراب والتعجب..

بسرعة، أخرجت كيس البارود الضخم من سترتي، لأبدأ في توزيعه في أركان المقر التي يخفيها الظلال، وفي حفر صغيرة صنعتها في الجدران بتوزيع مدروس، ثم وفي كل مكان مغلق أو ذو غطاء، وأخيرًا عند إطار النافذة الوحيدة في المكان..

الآن، كل ما أحتاجه هو سهم ناري واحد، لتبدأ الألعاب النارية!

انتهيت بسرعة لا بأس بها، لكنني شعرت بالإنهاك وبالعرق يغطيني، حين سمعت باب المقر وهو يفتح في عنف، كأنما ضربته صاعقة، وبصوت خطوات ثقيلة تتجه في سرعة تجاهي..

غريزيًا، اتجهت إلى صندوق ضخم في ركن القاعة لأختبئ خلفه، في اللحظة التي دخل (آرثر) فيها إلى الغرفة..

الدماء تغطي ملابسه والجنون يلتمع في عينيه،

وقد قبضت يداه على خنجرين صغيرين، بدا عليهما أنهما خاضا معركة قريبة.. معركة انتصر فيها (آرثر) على فصيلة الجنود كلها، بينما هلك رجاله عن آخرهم..

ما الذي حدث؟.. لقد فهم.. لابد أنه شعر بشيء ما أو انتبه إلى خطأ ما، المهم أنه فهم وأدرك طبيعة موقفه فجأة..

المهم أنه صاح في رجاله أنها خدعة، ليستل كل ذي سلاح سلاحه، وليستل هو خنجريه، ولتعود إليه ذكريات الحرب..

و المهم أنه حين انتهت المعركة، كان هو الوحيد الذي ظل واقفًا.. لا تهم الإصابات في الجسد الميت، بل تهم النتيجة.. والنتيجة أنه انتصر..

حتى ولو فقد كل رجاله، لقد انتصر..

لكن لا.. انتصاره لن يكتمل، إلا لو ظفر بعنقي..

وهو يعرف أين سيجدني..

و هاهو الموقف الآن مثير للسخرية.. أنا مختبئًا خلف الصندوق الضخم، بينما هو يقف في منتصف الغرفة، تقطر من خنجريه وملابسه الدماء، ويتدفق الغضب من عينيه، ومن رعشة جسده..

و بصوت لم يحمل ذرة من هدوءه الأثير، صرخ:

- "أنا أعرف أنك هنا.."

وهي معلومة لا تحتاج لقدرته على التنبؤ.. إن المواجهة التي ستحدث الآن، نتيجتها محسومة لصالحه..

أي فرصة أمتلكها أنا أمام رجل كهذا ؟!

- "اخرج لو كنت رجلاً.."

و هي جملة قد يلقي أي عربي نفسه بسببها في قفص الأسود أعزلاً، لذا أجذب نفسًا عميقًا لأحاول السيطرة على انفعالاتي.. ثم أخرج من مخبأي، وأنا أستل

سيفي ببطء..

و بهدوء قلت:

- "أنا هنا أيها الوغد.."

التفت لي على الفور، والغضب يطل من عينيه، وكاد يهجم، لكنه ابتسم فجأة، وقد انتبه إلى شيء ما، ليقول ساخرًا:

- "إنه أنت إذن..."

ما الذي يقصده؟.. المفترض أنه لا يعرفني ولم يرني من قبل و...

- "لقد كنت أعرف أنك قادم، لكني لم أتوقع أن تكون بهذه السذاجة.."

ثم إنه أعاد خنجريه إلى ملابسه، مواصلاً:

- "الكاهن الأسود أخبرني أنك ستأتي من أجلي.."

لم أقاوم أن أهتف في دهشة:

- "من هو الكاهن الأسود هذا؟!"

- "إنه من تنبأ لي بموتك على يدي.. إنه من منحني شرف إنهاء حياتك.."

- "إنه أحمق إذن.."

- "أهذا ما تعتقده حقًا؟"

الواقع أنني كنت أشعر بمزيج عجيب من الحيرة والخوف، وأنا أتساءل في أعماقي، السؤال الذي لن أعرف إجابته طويلاً..

"من هو الكاهن الأسود هذا؟.."

من هو؟؟..

- "لقد حدثني الكاهن الأسود عنك طويلاً.. عن حياتك البائسة التي تقضيها وحيدًا.. عن رحلاتك الحمقاء

عبر الزمن، للبحث عن العدالة التي لم تتحقق.. عن الأموات الذين تقضي معهم وقتًا أكثر مما تقضيه مع الأحياء.. دعني أتذكر.. نعم.. اسمك هو (نادر).. أليس كذلك؟!"

أحاول أن أمنع نفسي من الجنون، ذاهلاً بمشقة، بينما (آرثر) يقترب مني ببساطة، وابتسامته تملأ وجهه:

ـ "ألم تتساءل عن نهاية هذا كله؟.. عن جدوى الانتقام لمن لم يعودوا في حاجة إليه؟.. عن تلك الحياة التي لم تخترها وعن قدرتك التي لن تجد من تنقلها له، ليواصل حماقاتك من بعدك؟"

أنا أعرف ما يحاول فعله.. يجب أن أركز جيدًا..

ـ "ألم تتساءل عن عمرك، الذي يضيع بين الأزمنة؟"

سيقترب مني إلى الحد الكافي ثم..

ـ "ألم تفكر أنك ربما تكون مخطئًا؟.. ربما كان ما تراه أنت عادلاً ،هو في الواقع، الظلم بعينه؟"

ثم، وبسرعته الخرافية، استل (آرثر) خنجريه وطوح بذراعيه، لأهوي أنا بسيفي في ذات اللحظة على عنقه..

و دون أن أفهم كيف، شعرت بجسدي يطير، ليرتطم بالجدار خلفي، قبل أن أسقط على الأرض عاجزًا عن التنفس، والدماء تسيل من يدي، التي كانت تقبض على السيف، بينما ضحكة (آرثر) تدوي في المكان، لترتعش لها النيران في المشاعل!

ـ "يالك من أحمق.. أتظن أنك قادر على مواجهتي؟"

قالها، فبدأت جراح صدري وذراعيي في النزف، وبدأت أشعر بالألم على الرغم من ذهولي..

ـ "أخبرتك أن نهايتك ستكون على يدي.. الكاهن الأسود لا يخطئ أبدًا."

هببت أنا في سرعة، غاضبًا أهتف:

ـ "أنت وكاهنك الأحمق، ستذهبان إلى الجحيم."

و بسرعة انتزعت المشعل المعلق قرب رأسي، لألقيه على كومة بارود قرب (آرثر)، ليدوي انفجار محدود، أطار جسده إلى ركن القاعة، بينما التقطت أنا سيفي لأقفز عليه، والنيران تنتشر من حولي في سرعة.. لحظات وسيبدأ حفل النيران..

و قبل أن يجد (آرثر) فرصة للحركة، كنت قد غرست سيفي في صدره، لينفذ من ظهره وليخترق الأرضية الخشبية أسفله..

و بمقت لا حد له، قلت:

ـ "الآن لنر إن كان كاهنك الأحمق قادرًا على

إنقاذك."

و بينما جاهد (آرثر) لينتزع السيف -الذي ثبته في الأرض- من صدره، كنت أنا أسرع خارجًا، بينما النيران تنتشر في المكان بسرعة هائلة، لتبدأ الانفجارات من خلفي..

أجري خارجًا من المقر، والنيران تلفحني بحرارتها ودوي الإنفجارات يتلاحق في سرعة، ثم... ثم...

ثم فجأة، يدوي انفجار هائل رهيب يطير له جسدي، قبل أن أهوي على الأرض في عنف..

و للحظات لم أشعر بشيء، ثم استعدت حواسي فجأة، لأهب واقفًا في صعوبة، وقد ارتفعت النيران من حطام مقر (آرثر) بصورة غير طبيعية بالمرة..

نيران تتصاعد لعشرات الأمتار في السماء وكأنها فوهة بركان ثائر..

ما الذي كان يحويه هذا المقر بالضبط؟!..

لكن المهم أنني أنهيت مهمتي.. من المستحيل أن ينجو (آرثر) من انفجار كهذا، ولو كان شبحًا!

أقترب ببطء من المقر الذي ستحيله النيران إلى رماد، وأبدأ في الاسترخاء..

الآن يمكنني أن أعود إلى زمني، والآن ستتمكن (ليديا) من مغادرة عالمنا بلا رجعة..

الآن سوف...

لكنّ جسدًا ما ينتصب واقفًا فجأة وسط اللهيب، لتتجمد أفكاري كلها هلعًا..

و لسبب ما شعرت بصقيع!!

أمام هذا الأتون الملتهب، أشعر وكأنني مدفون في الثلوج!!

أمّا هذا الذي وقف وسط النيران، فمد يده تجاهي، وخرج صوته عميقًا مهيبًا يقول:

- *"نهايتك اقتربت.."*

يستوعب عقلي المعلومة ببطء.. إنه... إنه... *إنه الكاهن الأسود..*

- "نهايتك باتت أقرب مما تتصور.."

يقولها، ثم يبتلعه اللهيب فجأة كأنه لم يكن.. وبذات البساطة يتلاشى الصقيع من حولي..

إنه الكاهن الأسود..

لكنه وقت الرحيل..

أشعر بشيء ما ورائي، فأنظر لأجد شبح (ليديا) ينظر لي.. ويبتسم..

أبادلها الابتسام، ثم نبدأ في التلاشي سويًا..

تغادر هي عالمنا..

و أعود أنا إلى زمني..

* * *

10 – النهاية..

تجسدت في غرفتي، على مقعدي الضخم، وجسدي لا يزال ينزف من جراحه..

بصعوبة أجبرت نفسي على الوقوف، ثم جررت نفسي خارجًا من الغرفة والإنهاك يكاد يفقدني وعيي.. لكنني احتملت..

لا أعرف ما هو الوقت الآن ولا يهمني أن أعرف، ففي هذا الزمن، لا يهمني سوى أن أبقى وحيدًا..

طهرت جروحي وضمدتها جيدًا، ثم ارتديت منامتي لألقي بجسدي المكدود على الفراش، ولأبدأ في التفكير..

لو كنت تتساءل عن الملك (تشارلز)، فكتب التاريخ ستحمل لك إجابة سؤالك..

ما حدث أفقده عقله، ودفعه للمضي في هوس (سلطة الملوك المطلقة)، ليخسر حروبه مع (فرنسا) و(أسبانيا)، وليشعل الحرب الأهلية في بلاده.. تلك الحرب، التي برز فيها فارس لم يكن يجيد من فنون الحرب شيئاً، لكنه استطاع أن يوحّد الجيش تحت سلطته، وأن ينشئ كتيبة الفرسان التي واجهت جنون (تشارلز) وأطاحت به، ليهرب هذا الأخير عبر البلاد، قبل أن يسجن ويعدم في النهاية، بتهمة الخيانة العظمى..

هذا الفارس الذي انتصر عليه، كان يردد أن زائرًا أقنعه أن مصير البلاد يتوقف عليه، وأنه خشى من المسئولية في بادئ الأمر، لكنه قرر أن يتحمل عبئها لينتصر في النهاية..

هذا الفارس كان اسمه (أوليفر كرومويل)..

مهمة أخرى نفذتها بنجاح، لكنها أول مرة ألتقي بهذا (الكاهن الأسود) الذي لا يثير الآن في أعماقي سوى

التساؤلات..

من هو؟..

من أين أتى؟..

و ما الذي يريده بالضبط؟!..

لا أعرف الآن ردًا لهذا كله، لكني واثق أننا سنلتقي ثانية..

إن المواجهة التي حدثت بيننا لا تعني سوى البداية..

بداية الحرب!

على أية حال كل هذا من الممكن أن ينتظر لما بعد، فأنا الآن أستحق أن أظفر بالنوم بعد ثلاث أيام حرمت فيها منه.. لكنني أشعر بالعطش الشديد..

أجاهد لأغادر الفراش، ثم أتحسس طريقي إلى

الثلاجة، لألقي بكل ما تحويه من ماء بارد في جوفي، ثم أبدأ في تحسس طريقي عائدًا..

لماذا أتحسس؟

لأنني أعمى!.. ألم أخبرك بهذا؟!

لقد أخبرتك أنه يوم نقل لي جدي قدراته دفعت ثمنها باهظًا، والثمن كان قدرتي على الإبصار في هذا الزمن، بمعنى أنني أستعيد بصري لو انتقلت إلى أي زمن آخر..

في هذا الزمن أنا لا أرى سوى الموتى..

لكل شيء ثمنه وأنا لم أختر ولا ثمنه.. فقط أعرف أن عليّ المواصلة..

فقط أعرف أنني سأقضي حياتي أحقق العدالة لمن لم يحصلوا عليها..

سأقضي حياتي عبر التاريخ..

و عبر الزمن.

* * *